شرح
ثلاثة الأصول

للشيخ

خالد بن عبد العزيز الباتلي

الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

نسخة معتمدة من الشيخ – حفظه اللّه –.

جميع الحقوق محفوظة لأكاديمية بناء العلمية. ويُسمح بتداوله ونشره للأغراض الدعوية، بشرط عدم الزيادة أو الحذف.

النشرة الثالثة || شعبان ١٤٣٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ..

وبعد؛

فهذا شرح مختصر على متن «ثلاثة الأصول» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان أصله دروسا صوتية ثم فُرِّغت وروجعت، وقد اجتهدت في بيان مقاصد المتن، وتهذيب مسائله مع الاستدلال والتقريب.

أسأل الله أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله من العلم النافع المدَّخر، كما أرجو ممن يقف على خطأ أو ملحوظة ألَّا يتردد في إبلاغي بها، وحقه علي الشكر والدعاء، فالعلم رحمٌ بين أهله.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، هو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه/ خالد بن عبد العزيز الباتلي

batli٢٨@gmail.com

* * *

مقاصد ثلاثة الأصول

أولا: المقدمات:

١- يجب تعلُّم أربع مسائل: العلم، والعمل، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

والدليل قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١-٣].

٢- يجب تعلم ثلاث مسائل:

أ- إثبات الربوبية لله - تعالى -، وأنه الخالق الرازق المدبر. وإثبات رسالة النبي ﷺ، وأن من أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.

ب- وجوب إفراد الله بالعبادة، وأنه لا يرضى أن يُشرَك معه أحد مهما كان.

ج- الولاء للمؤمنين، والبراءة ممن حادَّ الله ورسوله.

٣- الحنيفيَّة مِلَّة إبراهيم: أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين، وبذلك أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جميع الناس وخلَقَهم لها. وأعظم ما أمر الله به: التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة. وأعظم ما نهى عنه: الشرك، وهو دعوة غيره معه.

○○○

ثانيا : الأصول الثلاثة :

الأصل الأول : معرفة العبد ربه :

ربي الله، وهو معبودي ليس لي معبود سواه.

يُعرَفُ الرب بآياته ومخلوقاته، ومن آياته: الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته: السموات السبع والأرضون السبع.

أصول العبادات ترجع إلى: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

من العبادات التي أمر الله بها: الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك؛ فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر.

الأصل الثاني : معرفة دين الإسلام :

الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. والدين الإسلامي ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وكل مرتبة لها أركان.

- **أركان الإسلام خمسة:**

الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله. ومعنى شهادة (أن محمدا رسول الله): طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد اللهُ إلا بما شَرع.

والثاني: إقام الصلاة. **والثالث**: إيتاء الزكاة.

والرابع: صوم رمضان. **والخامس**: حج بيت الله الحرام.

- **وأركان الإيمان ستة:**

الأول: الإيمان بالله. **والثاني**: الإيمان بالملائكة.

والثالث: الإيمان بالكتب. **والرابع**: الإيمان بالرسل.

والخامس: الإيمان باليوم الآخر. **والسادس**: الإيمان بالقدر خيره وشره.

- **أمَّا الإحسان:**

فله ركن واحد: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

الأصل الثالث: معرفة الرسول محمد ﷺ:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل – عليهما صلاة الله وسلامه –.

عمره ثلاث وستون سنة، منها: أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيا رسولا.

نُبِّيء بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأُرسِل بـ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. وبلده مكة، وهاجر إلى المدينة.

بعثه الله بالنذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد.

مكث في مكة عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عُرِج به إلى السماء وفُرِضَت عليه الصلوات الخمس، وصلَّى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أُمِر بالهجرة إلى المدينة، فلمَّا استقر في المدينة أُمِر ببقية شرائع الإسلام؛ مثل: الزكاة، والصوم، والحج، وغيرها.

مكث في المدينة عشرَ سنين ثم توفاه الله، ودينُه باقٍ، لا خير إلا دلَّ الأمة عليه ولا شر إلا حذرها منه، بعثَه الله في الناس كافة، وافترض طاعته على جميع الثقلين الجنِّ والإنسِ.

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام. وهي فريضة على هذه الأمة، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة.

ثالثا: الخاتمة:

١- الإيمان بالبعث بعد الموت، ومن كذَّب بالبعث كفر. وبعد البعث يكون الحساب والجزاء على الأعمال.

٢- أرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، وأولهم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين. وكل أمة بعث الله إليهم رسولا من

نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى محمد ﷺ يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت.

٣- فرض الله على عباده الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنى الطاغوت: «ما تجاوز به العبد حَدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع»(١).

والطواغيت كثيرون، ورؤوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومَن عُبِد وهو راضٍ، ومَن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومَن ادَّعَى شيئا مِن علم الغيب، ومَن حكم بغير ما أنزل الله.

* * *

(١) «أعلام الموقعين» (١/ ٤٠).

مقدمات بين يدي الشرح

قبل أنْ نشرع – بعون الله وتوفيقه – في الكلام على هذه الرسالة المختصرة في مبانيها، العظيمة في معانيها (رسالة ثلاثة الأصول) للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يحسُن بنا أنْ نُقدِّم ببعض المقدمات، وهي خمس مسائل:

المسألة الأولى: ترجمة موجزة للشيخ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أولا: نسبه ومولده ونشأته:

هو الشيخ ناصر السُّنة وقامع البدعة الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرَّف النَّجْدِيُّ التَّمِيمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وُلد سنة خمس عشرة ومئة وألف (١١١٥هـ) في بلدة «العُيَيْنَة»، وهي بلدة قريبة من الرياض، ونشأ في بيت علم، وظهرت عليه علامات النَّجابة والنبوغ من صغره؛ فحفظ القرآن – على يد والده – قبل بُلوغه العاشرة، ثم درس عليه الفقه والتفسير والحديث، واعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وأثَّر ذلك على منهجه العلمي في كتبه كما هو مُلاحظ.

رحل في طلب العلم إلى مكة، فحَجَّ، وأخذ عن بعض علماء الحرم، ورحل – أيضا – إلى المدينة وأقام بها مُدة، ثم رحل إلى العراق، وأقام في البصرة وأخذ عن علمائها، ثم إلى الزُّبير والأحساء، وكان في رحلاته طالبا للعلم، داعيا إلى الله، متفَقِّها في الدِّين.

ثانيا: من أبرز شيوخه:

والده الشَّيخ عبد الوهاب بن سُليمان، والشَّيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافِعي، والشَّيخ محمد حياة السِّندي، وغيرهم.

ثالثا: من أبرز تلاميذه:

أبناؤه الشَّيخ: علي، وحُسين، وعبد الله، والشَّيخ حسين بن غنَّام، وحفيده عبد الرحمن بن حسن، وغيرهم - رحمهم الله جميعا -.

رابعا: آثار الشيخ ومؤلفاته:

صنَّف الشيخ عددا من المؤلَّفات؛ من أشهرها: «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»، و«**ثلاثة الأصول**»، وهو هذا الكتاب الذي نحن بصَدَد دراسته، و«كشف الشبهات»، و«مختصر زاد المعاد»، و«مسائل الجاهلية»، وغيرها.

خامسا: وفاته:

تُوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ست ومئتين وألف (١٢٠٦هـ) بعد حياة حافلة بالعطاء والجهاد، والدعوة إلى الله، ونشر التوحيد، ومحاربة الشرك والبدع، رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجمعنا به في واسع جناته.

○○○

المسألة الثانية: اسم الكتاب:

وفي هذا رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أن اسمها «الأصول الثلاثة» وأُخذ هذا من قوله في هذه الرسالة: «فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب ...؟» إلى آخره، فقوله: «ما الأصول الثلاثة» أخذوا منه أن هذا هو اسم الرسالة.

وهذا ليس بلازم، كونه يقول في أثناء الرسالة: «ما الأصول الثلاثة» لا يلزم أن اسم الرسالة هو هذا.

والرأي الثاني: أنَّ اسمها «ثلاثة الأصول»، ومشى على هذا الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حاشيته على هذه الأصول الثلاثة، وهو جامع «الدرر السنية» فسماها «حاشية ثلاثة الأصول»، وكذلك هي في مجموع مؤلفات الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قسم العقيدة سُمِّيَت بهذا الاسم «ثلاثة الأصول»، وفي شرح الشيخ محمد بن عثيمين - أيضا - سُمي «شرح ثلاثة الأصول»، فهذا يُشير إلى أنهم يختارون تسميتها بهذا الاسم «ثلاثة الأصول».

وقد نبَّه معالي الشيخ صالح آل الشيخ - وفقه الله - إلى تنبيهٍ مهم في هذه المسألة، وهو أن للشيخ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالتين: الأولى رسالة صغيرة أقل من هذه كتبها للصبيان والصغار تُسمى «الأصول الثلاثة».

والرسالة الثانية اسمها «ثلاثة الأصول» وهي هذه التي تُشرح وتُدرس، فهذه المشهورة المعروفة اسمها «ثلاثة الأصول»، وتلك «الأصول الثلاثة».

وعلى كلٍّ فالأمر قريب في هذا سواء سُميت «الأصول الثلاثة» أو «ثلاثة الأصول»، والحمد لله.

هذا، وقد ذُكِرَت هذه الرسالة في كتاب «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» الذي جمعه الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أربعة مواضع:

الموضع الأول: ذُكِرَت كاملة كما هي بنصها[١].

والموضع الثاني: فيه زيادة ونقص عن هذه الرسالة المشهورة، فيه زيادة في بعض المسائل، وفيه نقص - أيضا - لبعضها[٢].

والموضع الثالث: ذُكِرَت، واقتصر فيها على الأصول الثلاثة فقط دون المقدمات ودون الخاتمة[٣]، وهذه كتبَها بطلب من الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، طلب منه أن يكتب رسالة موجزة في أصول الدين؛ ليتعلمها العوام، فكتب الشيخ هذه الرسالة الموجزة مقتصرا على الأصول الثلاثة.

والموضع الرابع: وهي مختصرة بدأها بقوله: «إذا قيل لك: من ربك؟ ...» إلى آخره[٤].

فهذه أربعة مواضع ذُكر فيها أصل هذا المتن في كتاب «الدرر السنية».

---

(١) «الدرر السنية» (١/ ١٢٥ - ١٣٦).

(٢) السابق (١/ ١٣٧ - ١٤٣)

(٣) السابق (١/ ١٤٧ - ١٥١).

(٤) السابق (١/ ١٥١ - ١٥٨).

المسألة الثالثة: مضمون الرسالة:

بالتأمُّل في هذه الرسالة المختصرة نجد أنها تتكون من ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول**: المقدمة، وذكر فيها ثلاث مسائل:

الأولى: في وجوب تعلُّم أربع مسائل، وصدَّرها بقوله: «اعلم رحمك الله».

والثانية: في وجوب تعلُّم ثلاث مسائل، وصدرها - أيضا - بقوله: «اعلم رحمك الله».

والثالثة: في بيان ملة إبراهيم ﷺ، وصدرها بقوله: «اعلم أرشدك الله لطاعته».

- **القسم الثاني**: صُلْب الرسالة ومقصودُها، وهو الكلام عن الأصول الثلاثة: معرفة العبد ربه، ودينه ومراتب الدين، ومعرفة العبد نبيه ﷺ.

- **القسم الثالث**: الخاتمة، وتكلم فيها عن الإيمان بالبعث وما يتعلق به، ثم تحدث عن الكفر بالطاغوت وبيان معنى الطاغوت.

هذا - باختصار - مضمون هذه الرسالة.

المسألة الرابعة: أهمية هذه الرسالة وعناية العلماء بها:

تكمُن أهمية هذه الرسالة المختصرة في أنها تتحدث عن أسئلة القبر الثلاثة؛ فإذا وضع الإنسان في قبره فإنه يأتيه ملكان ويسألانه الأسئلة الثلاثة المعروفة، وهذه الرسالة أجابت عن هذه الأسئلة.

وحَرِيٌّ بالمسلم أن يدرُس هذا المتن ويكرِّرَ دراسته ولا يمَل؛ لأنه مُقدِم على عقبة كؤود وسفر طويل، رحلة الدار الآخرة حينما تُوضَعُ في قبرك وحيدا فريدا ويهِيلُ الترابَ عليك أقربُ الناس إليك، ثم يأتيك الملكان يسألانك هذه الأسئلة الثلاثة، فما أحسن الاستعداد والمذاكرة والدرس والتكرار قبل الامتحان، والموفَّق من ثبَّته الله وألهمه الصواب، قال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وذكر صاحب «الدرر السنية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود طلب من الشيخ محمد أن يكتب رسالة موجزة في أصول الإسلام؛ ليتعلمها الناس ويتفقَّهُوا في دينهم، فكتب الشيخ هذه الرسالة «ثلاثة الأصول» التي تتحدث عن هذه المسائل الثلاث، فأرسل الإمام عبد العزيز إلى البلدان وأمر الناس أن يتعلموها في المساجد بواسطة أئمة المساجد وطلبة العلم، وصاروا يسألون الناس في المساجد كل يوم بعد صلاة الصبح وبعد العشاء ويسألونهم عن الدين، يعني عن هذه المسائل الثلاث وعن مضمون هذه الرسالة.

واعتنى العلماء بها عناية فائقة فلا تكاد تُحصى طبعاتُها، ولا يكاد يُحصى - أيضا - شُرَّاح هذه الرسالة، فقلَّ عالم أو طالب علم إلا وقد شرح هذه الرسالة، سواء كان ذلك مطبوعا أو مكتوبا أو مسجلا.

وممن كتب حاشية عليها: الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، فله حاشية مفيدة مطبوعة ومعروفة عند أهل العلم.

كما نظَمَها غير واحد من أهل العلم، وممن نظمها: الشيخ عمر بن إبراهيم المدني في منظومة سماها «تسهيل الحفظ والوصول نظم الثلاثة الأصول»، وهي مطبوعة.

واختُصِرت هذه الأصول الثلاثة، وممن اختصرها: الشيخ عبد العزيز بن محمد الشثري.

وغير ذلك من الخدمات الجليلة، والعناية الكبيرة بهذه الرسالة المختصرة؛ وذلك لأهميتها وشدة حاجة كل مسلم ومسلمة إليها.

المسألة الخامسة: خطة الشرح:

رغبةً في تقريب العلم، وترتيب مسائله، رأيت أن يكون شرح هذا المتن وفق الخطة الآتية، وهي تتكون من ثلاثة فصول، في كل فصل ثلاثة مباحث:

الفصل الأول: المقدمات، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المسائل الأربع.

المبحث الثاني: المسائل الثلاث.

المبحث الثالث: الحنيفية، وأعظم الأوامر والنواهي.

الفصل الثاني: الأصول الثلاثة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معرفة العبد ربه، وأنواع العبادة.

المبحث الثاني: معرفة دين الإسلام، وبيان مراتبه.

المبحث الثالث: معرفة النبي ﷺ.

الفصل الثالث: الخاتمة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البعث بعد الموت.

المبحث الثاني: إرسال الرسل.

المبحث الثالث: الطاغوت؛ بيانه، وحكمه.

* * *

الفصل الأول: المقدمات

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المسائل الأربع:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ».

الشرح:

- قوله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»:

ابتدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالبسملة لأمور:

الأول: اقتداءً بكتاب الله - عز وجل -؛ فإنَّا نجد أن القرآن الكريم مبدوء بالبسملة.

الثاني: اتباعا للسنة الفعلية؛ فإنه ﷺ كان في مكاتباته يبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، كما في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل عظيم الروم، وفيه: «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ** ...»[1]، إلى آخره.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الثالث: عادةُ أهل العلم وطريقتُهم في مُصَنَّفاتهم وكتبهم قديما وحديثا أن يبتدئوها بالبسملة.

أما حديث «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، أَقْطَعُ**»(١)، فهذا الحديث ضعيف عند أهل العلم.

- قوله: «اعْلَمْ»:

العِلم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكا جازما.

وقولنا: إدراك الشيء، خرج به عدم الإدراك، وهذا هو الجهل البسيط.

وقولنا: على ما هو عليه، خرج إدراكه على وجه يخالف ما هو عليه، وهو ما يُسمى بالجهل المركب.

مثال: لو سألنا عن عاصمة العراق؟، فقال قائل: «لا أدري»، وقال آخر: «القاهرة»؛ فالأول جهله بسيط، والثاني جهله مركب؛ لأنه لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وقولنا – في تعريف العلم –: إدراكا جازما، خرج ما لو أدرك الشيء إدراكا غير جازم، وهو الظَّن.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٢١٠)، بهذا اللفظ. وأخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤)، بذكر «الحَمْد» بدلا من البسملة، وقال الألباني في «الإرواء» (١): «ضعيف جدا».

وينقسم العلم إلى قسمين:

الأول: علم أزلي: وهو علم الله – تعالى –، وهو ليس له ابتداء ولا انتهاء، لا يغيب عن علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيء في السموات ولا في الأرض، وسِعَ كل شيء رحمة وعلما.

الثاني: علم مُحْدَث: وهو علم الخَلق؛ لأنه حادث بعد عدم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا**﴾ [النحل: ٧٨].

- وقوله: «رَحِمَكَ اللهُ»:

هذه الجملة خبرية لفظا، إنشائية معنى؛ فهي دُعاء للمتعلِّم بالرحمة، والمراد: غفر الله لك ما مضى من ذنوبك، ووفقك وعصمك فيما يُستقبل.

وقوله في هذا التعبير: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ»: يُشعر بأهمية ما سيأتي، وشدة الاعتناء به، مع شفقة المؤلِّف وحرصه على المتعلم – جزاه الله خيرا –. وهذا من الرحمة في العلم، أن ينصح المعلمُ للمتعَلِّم.

- ثم قال: «اعْلَمْ – رَحِمَكَ اللهُ – أَنَّهُ يَجِبُ علينا تعلُّمُ أربعِ مسائلَ»:

الواجب هو: ما طلب الشارِعُ فعله طلبا جازما.

وحكمه: أنه يُثاب فاعله امتثالا، ويستحق تاركُه العقابَ.

فأفاد أن هذه المسائل الأربع الآتية، حكمُ تعلُّمِها: الوجوب؛ فيجب على كل مُكَلَّف من الجن والإنس تعلُّمُ هذه المسائل الأربع.

وهذه المسائل ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجعلها مراتب جهاد النفس[1].

ooo

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذه المسائل الأربع، فقال:

«الأُوْلَى: الْعِلْمُ.

وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ».

الشرح:

والعِلم هنا يراد به شيء خاص وليس مطلق العلم، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد يستويان[2]

والعلم منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

- وعبَّر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العلم بالمعرفة، فهل هما مترادفان أو متغايران؟

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ٥).

(٢) «الكافية الشافية» المعروفة بنونية ابن القيم، البيت رقم (١٥٧٦).

في هذا كلام لأهل العلم، خلاصتُه أن هناك أقوالا في العلاقة والفرق بين المعرفة والعلم، منها:

الأول: القول بالترادف، وأن المعرفة بمعنى العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿**مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ**﴾ [المائدة: ٨٣]، يعني مما علِموا.

الثاني: أن بينهما عموما وخصوصا من وجه؛ فالعلم أعم من المعرفة من جهة أنه يشمل المُحدَث وغير المحدَث – القديم الأزلي –؛ فالمُحدَث كعلم العِباد، والأزلي كعلم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

أما المعرفة فهي خاصة بالعلم المُحدَث؛ ولهذا لا يوصف الله بأنه عارف وإنما هو عالم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ﴿**عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ**﴾ [الأنعام: ٧٣].

والمعرفة أعم من العلم من جهة أنها تشمل اليقين والظن، أما العلم لا يشمل إلا اليقين.

وكأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا جرى على معنى الترادف، والله – تعالى – أعلم.

- وقوله: «مَعْرِفَةُ اللهِ»:

هذا هو الأصل الأول الآتي في هذه الرسالة – إن شاء الله –، وسيأتي الكلام عليه في محله. وكذلك «مَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ» هذا الأصل الثالث، و«مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ» هذا هو الأصل الثاني. وسيأتي الكلام عنهما مفصلا، إن شاء الله – تعالى –.

- قوله: «بالأَدِلَّةِ»:

هذه فيها إشكال؛ لأن قوله: «بالأَدِلَّةِ» الباء للمصاحبة، يعني أن يعرِف العبد ربَّه ونبيه ودينه دينَ الإسلام، بالأدلة.

ووجه الإشكال: أن أهل السنة والجماعة يرون صحة إيمان المقلِّد؛ خلافا لما عليه المتكلِّمُون (المعتزلة والأشاعرة) الذين لا يرون ذلك.

وهذه من المسائل التي تكلَّم عنها أهل العلم في كتب العقيدة وكتب الأصول وغيرهما.

والراجح فيها: صحة التقليد في مسائل الاعتقاد؛ فقد أحال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على سؤال أهل العلم في قوله: ﴿**فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣]، وهذا عامٌّ في العقائد وغيرها.

وأيضا العامِّي لا يدرك الأدلة، فتكليفه بأخذ العلم من الأدلة وفهمها، واستنباطه منها، تكليف بما لا يُطيقه.

فالحاصل أن الواجبَ على العامِّي الاعتقادُ الجازم فيما يُطلب فيه الجزم، ولو كان ذلك عن طريق التقليد.

ويوجَّه كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن يُحمَل على أن هذه الأصول الثلاثة (معرفة الله، ومعرفة نبيه، ودينه) تُبيَّن للعامِّي بالأدلة ليحصل له الجزم؛ لأن هذا هو الواجب، أي: الاعتقادُ الجازم.

فالكلام للمُبيِّن - وهو العالِم أو طالب العلم أو المعلِّم -، فيُبيِّن للعامِّي هذه الأصول بالأدلة؛ ليحصل له الجزم. أما العامي المتلقِّي فيجب عليه أن يعتقد ذلك اعتقادا جازما، ولا يلزمه معرفة الأدلة واستحضارها.

وقال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفرض على كل أحد معرفة التوحيد وأركان الإسلام بالدليل، ولا يجوز التقليد في ذلك، لكن العامِّي الذي لا يعرف الأدلة إذا كان يعتقد وحدانية الرب - سبحانه - ورسالة محمد ﷺ، ويؤمن بالبعث بعد الموت وبالجنة والنار، وأن هذه الأمور الشركية التي تُفعل عند هذه المَشاهِد باطلة وضلال، فإذا كان يعتقد ذلك اعتقادا جازما لاشك فيه فهو مسلم، وإن لم يترجم بالدليل؛ لأن عامة المسلمين ولو لُقِّنوا الدليل فإنهم لا يفهمون المعنى غالبا»[1]. والله أعلم.

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان المسألة الثانية، فقال:

«الثانية: العَمَلُ بِهِ».

الشرح:

يعني العَمَل بالعِلم، وذلك بتصديق الأخبار، وامتثال الأوامر والنواهي.

(١) «الدرر السنية» (٤/ ٣٣٩).

فإذا قال قائل: تعلَّمتُ مسائل وفوائد من مسائل الدين من الكتاب والسنة، فكيف أعمل بها؟

فالجواب: إذا كانت هذه المسألة خبرا من الله أو رسوله ﷺ فتُصدِّقُ بها، وإن كانت أمرا فتَمْتَثِل، وإن كانت نهيا فتَجْتَنِب.

والعمل تابع للعلم كما سيأتي، وهو ثمرة العلم:

وعالمٌ بعِلْمِهِ لم يعْمَلَنْ مُعَذَّبٌ مِن قَبلِ عُبَّادِ الوثن[1]

والجمع بين هذين الأمرين (العلم والعمل) هو سلوك الصراط المستقيم، فمَن عمِل بلا علم فقد شابه النصارى، ومن عَلِم ولم يعمل فقد شابه اليهود، وأما من وفَّقه الله للأمرين فعلِم وعَمِل فهذا على صراط مستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم.

وجاء في الحديث قولُه ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ** ...»، وذكر منها «**وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ**»[2].

والعمل يشمل الواجب والمستحب، والظاهر أن المراد هنا الواجب؛ لأنه الذي يجب تعلُّمه، وكل الأعمال الواجبة من الصلوات الخمس والزكاة وصوم

---

(١) «الزبد في الفقه الشافعي» ص٤، والبيت منسوب للشيخ أحمد بن رسلان الشافعي.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والدارمي (٥٥٤)، من حديث أبي بَرْزَة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

رمضان والحج، وما إلى ذلك مما أوجبه الله من العمل، فهذا يجب تعلُّمُه على العبد المكلف، أما ما كان من المستحبات والمندوبات فهذا يُستحب للإنسان أن يتعلمه، وأن يقرن العلم بالعمل.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ».

الشرح:

يعني الدعوة إلى هذا العلم والعمل به؛ فإن كان هذا العلم عقيدة فالدعوة إلى اعتقاد هذه العقيدة الصحيحة اعتقادا جازما، وبيان دليلها من الكتاب والسُنَّة، وإن كان أمرا قولِيًّا فيُدعى إلى التزام ذلك بالقول، وإن كان أمرا فعلِيًّا فيُدعى إلى التزام ذلك بالعمل به، وهكذا.

وهذه طريقة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، يقول الله - عز وجل -: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

والأحاديث في هذا كثيرة؛ كقوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(١)، وقوله ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ؛ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»(٢)، وقال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»(٣)، والنصوص في هذا كثيرة.

وعلى الداعي أن يتصف بصفات الداعية، ومن أهمها:

الأولى: الإخلاص: فيقصد بدعوته وجه الله - تعالى - وبيان دينه الذي ارتضاه لرسوله ﷺ.

والثانية: العلم: فلا بد أن يكون الداعي عالما بما يدعو إليه، ولا يدعو الناس إلى شيء لا يعلمه أو هو شاك فيه أو غير متثبت منه أو نحو ذلك.

والثالثة: مراعاة الأولويات: فيبدأ بالأهم فالمهم على حسب الواقع، كما قال الرسول ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا بعثه إلى اليمن: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٩٤٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ ...»[1]، إلى آخر الحديث، حيث تدرَّج معه في الواجبات الشرعية.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ».

الشرح:

الصبر هو: حبس النفس عن الجزَع، وهو ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

- وقوله: «الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ»، هل الضمير يعود على المسألة الثالثة (الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ)؟ أو يعود على جميع ما سبق؟

فيه احتمال، والواقع أن الإنسان يحتاج إلى الصبر في الأمور الثلاثة؛ يحتاج إلى الصبر في طريق العلم، ويحتاج إلى صبر في طريق العمل، ويحتاج إلى صبر في طريق الدعوة، وقد يواجَه بأذى في هذه الطرق جميعا، والأذى قد يكون قوليا وقد يكون بَدَنِيًّا وقد يكون ماليا.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٤٥٨) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا بد من الصبر في هذه المسالك الثلاثة: العلم، والعمل، والدعوة؛ لأن غالب من يسلك طريق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يؤذى؛ لأنه يخالف أهواء الناس وشهواتهم، وقد ذكر لقمانُ هذا الأمر في وصيته لابنه، حين قال: ﴿**يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا**﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال جلَّ وعلا لنبيه ﷺ: ﴿**فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ومَن صَبَرَ ظَفِر، كما قال النبي ﷺ في الحديث: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**»(١)، فلابد من الصبر، ولابد أن يُربي المسلم نفسه على هذا الأمر: الصبر في طلب العلم؛ لأن طريق العلم طويل وفيه مخالفة لما تهواه النفس، وأيضا صبرٌ في طريق العمل والعبادة، وصبرٌ في طريق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

○○○

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥١٨) بدون موضع الشاهد، وأحمد (٢٨٠٣)، والحاكم (٦٣٠٣) واللفظ له، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٦).

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أدلة هذه المسائل، فقال:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: ١ - ٣]».

الشرح:

استدل رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وجوب تعلُّم المسائل الأربع السابقة بهذه السورة العظيمة؛ سورة «العصر».

- وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾:

هذا قَسَم بالعصر، وهو الدَّهر محل الحوادث، وقيل: هو آخر ساعات النهار، أقسم به كما أقسم بالضُّحى أوَّلِ النهار.

- وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾:

يعني: جِنْس الإنسان في خسارة، كل بني الإنسان في خسارة، إلا من اتصف بهذه الصفات.

- وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾:

هذا دليل على المرتبة الأولى، وهي العلم، ودلالتها عليها بطريق اللزوم؛ لأنهم لم يؤمنوا إلا بعد علم.

- وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

هذا دليل على المرتبة الثانية وهي العمل، وعطْفُ العمل على الإيمان من باب عطف الخاص على العام، وليس في هذا دلالة على إخراج العمل من مسمى الإيمان.

- وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾:

هذا دليل على المرتبة الثالثة، وهي الدعوة إلى الحق، والحق هو الإيمان بالله والعمل الصالح[1].

- وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾:

يعني: يوصِي بعضُهم بعضا بالصبر، وهذا دليل على المرتبة الرابعة.

ووجه الدلالة من هذه السورة على ما سبق: أنها دَلَّت على أن النجاة إنما تكون لمن حقَّقَ هذه الأمورَ الأربعة، ومن لم يحقِّقْها فهو خاسر، فالواجب على العاقل أن يسعى في نجاة نفسه وتخليصها من الخسران المبين.

○○○

(١) «تفسير السعدي» ص٩٣٤.

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر شيء من أقوال العلماء في هذا الباب، فقال:

«قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ».

الشرح:

الإمام الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس، المتوفى سنة أربع ومئتين للهجرة، وهو أحد أصحاب المذاهب الأربعة المتبوعة - رحمهم الله تعالى-.

- يقول: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ»، وعبارة الإمام الشافعي - كما ساقها الحافظ ابن كثير في تفسيره -: «لو تدبَّر الناس هذه السورة لوَسِعَتْهُم»[1].

ويريد الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه السورة جمعت ما يحتاجه الناس في هذا الأمر؛ ولهذا نبَّه الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن مراد الشافعي أن هذه السورة كافية للخلق في الحث على هذه الأمور الأربعة، وليس مرادُه أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة؛ لأنها لا تدل ولا تفيد في كثير من أمور الشرع، كمسائل الطهارة والصلاة وغيرهما من مسائل الدين، وإنما مراده في هذه الأمور.

ومما يدل على فضل هذه السورة ما أخرجه الطبراني وغيره عن أبي مَدِينَةَ الدارمي، وكانت له صحبة، قال: «**كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا**

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٩).

الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]، ثُمَّ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ»[1].

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَقَالَ البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ».

الشرح:

الإمام البخاري: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الإمام الحافظ الجهبذ صاحب الصحيح، وأول من صَنَّف في جمع الصحيح المجرد، وكتابه أصح الكتب المؤلفة، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ستٍ وخمسين ومئتين للهجرة (٢٥٦ هـ)، وهو إمام صنعة الحديث.

ذكر هذا في كتاب العلم من صحيحه، ونص كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب العلم: «باب: العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله - تعالى - ...»[1]، هذه عبارته وليست «والدليل» كما ساقها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٥٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٤٨).

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ». انتهى.

ولعل الزيادة في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ»، من باب التوضيح لكلام الإمام البخاري.

وكلام الإمام البخاري واضح في أن العلم ينبغي أنْ يسبق القول والعمل، واستدَل على ذلك بالآية ﴿فَٱعْلَمْ﴾ العلم، ثم العمل: الاستغفار.

وأيضا، فلا يمكن للإنسان أن يعمل عملا صحيحا يرضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلا بعد أن يتعلمه، فكان هذا أيضا مُقتضى النظر والعقل، أن العِلمَ مُقدَّم على العمل.

○○○

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٢٤).

المبحث الثاني[1]: المسائل الثلاث:

بعد أنْ فرغ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان المسائل الأربع السابقة بأدلتها، شرع في ذكر ثلاث مسائل أخرى مما يجب على المسلم تعلمه، فقال:

«اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثَلاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦]».

الشرح:

هذه المسائل الثلاث مسائل مهمة في الدين، وخلاصتها:

المسألة الأولى: تتعلق بالربوبية والرسالة.

المسألة الثانية: تتعلق بإفراد الله بالعبادة.

المسألة الثالثة: تتعلق بالولاء والبراء.

- فالمسألة الأولى: «أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا»:

(١) من الفصل الأول (المقدمات).

الله - عز وجل - خالق كل شيء؛ خلقنا وخلق جميع الموجودات. ومعنى خَلَقَ: أوجد الأشياء، وأبدعها على غير مثال سابق.

والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وغيرها.

وأما الدليل العقلي: فقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، هذا على قاعدة ما يُسمى بـ«السَّبر والتقسيم»؛ لأنه من حيث النظر العقلي ليس إلا ثلاثة احتمالات، لا رابع لها:

الاحتمال الأول: أن هذا الإنسان خَلق نفسه! وهذا باطل؛ لأنه كان عدما، والعدم لا يمكن أن يُوجِد نفسه.

الاحتمال الثاني: أن هذا الإنسان خُلِق صُدفة بدون مُبدِع، وبدون خالق ومُوجِد، وهذا أيضا باطل؛ لأن كل حادث لابد له من مُحدث، وكل موجود لابد له من موجِد.

وهذا أيضا بمقتضى العقل والفطرة لا يتصوَّرُه أحد، فلو أن إنسانا رأى قصرا مشيدا أو سفينة كبيرة تمخَرُ عُبابَ الماء فلا أحد يتصور أن هذه السفينة

وُجِدت صدفة، كما جاء في مناظرة الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع أولئك الطائفة الذين أنكروا وجود الله – تعالى –[1].

الاحتمال الثالث: وهو أن تكون هذه الموجودات لها خالق ومُوجِد، وهذا هو الحق، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ**﴾ [الطور: ٣٥].

وجاء في صحيح البخاري عن جُبَيرِ بن مُطعِم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ**﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[2]؛ لأنه كان يدرك مقتضيات اللغة ومدلولاتها.

---

(١) ينظر: «شرح العقيدة الطحاوية» ص٢٦ وما بعدها، و«شرح الفقه الأكبر» للقاري ص١٤. ولفظها: «أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسو بنفسها وترجع، كل ذلك من غير أن يديرها أحد؟ فقالوا: هذا محال لا يمكن أبدا، فقال لهم: إذا كان هذا محالا في سفينة، فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله؟ ... ».

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٨٥٤) واللفظ له، ومسلم (٤٦٣).

فتبيَّن بالأدلة النقلية والعقلية أن الخَلْق لا يكون إلا لله، والمراد بالخَلْق: إيجادُ الأشياء وإبداعُها على غير مثال سابق، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وما ورد من إضافة الخلق إلى المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي الصحيحين أنه يقال للمُصوِّرين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1]، ليس المقصود به الإيجادَ من العدم، وإنما هو تحويل للشيء من صورة إلى صورة أخرى. أما خَلْق الله: فهو إيجاد من العدم على غير مثال سابق.

وهذا الخلق يسيرٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله - جلَّ وعلا -: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ ...﴾ [الأحقاف: ٣٣]، إلى آخر الآية.

- ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَرَزَقَنَا»:

والرزق: هو ما يُنتفع به من مال أو مطعوم أو غيرهما، فكل ما يُنتفع به فهو رزق، ويكون في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

والرِّزق بمعنى المَرزُوق الذي يُعطاه المخلوقُ، أما الرَّزْق (بالفتح): فهو المصدر، أي: فِعْلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ودَلَّ على أن الله هو الذي يرزق المخلوقات أدلةٌ كثيرة - أيضا -؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

ومن السُّنة ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في مراحل خلق الجنين، والشاهد منه قوله ﷺ: «**ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»(١).

وقد جُمع الرِّزق مع الخلق في آية واحدة في قوله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ...﴾ [الروم: ٤٠]، فهو الخالق والرازق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا»:

يعني: مُهمَلِين سُدى ضائعين، كما قال جل وعلا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ...﴾

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٤٥٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[المؤمنون: ١١٥]، يُنزِّه الله عن مثل هذا العبث، قال جل وعلا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

- فلم يتركنا الله هملا ضائعين مهملين سدى، وإنما «أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا»، وهو محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبِمَ أرسله الله؟

قال جل وعلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فأرسله الله لتزكية النفوس، وتلاوة الآيات، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه.

- قوله: «فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»:

أي: من أطاع الرسول دخل الجنة، وهذا منصوص عليه في آيات كثيرة؛ كقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ»(١).

---

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّن سنده محققو المسند (١٤/٣٤٣). وأخرجه البخاري (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «... **وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**».

والواجب طاعة النبي ﷺ، بل طاعة كل نبي ورسول، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

- وقوله: «وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ»:

هذا - أيضا - مقرَّرٌ وثابت بالنصوص الشرعية، كقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وفي الحديث السابق: «**وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ**»(١).

ودخول النار نوعان:

النوع الأول: دخول إلى أبد، أي: دخول مؤبد، وهذا للكافر؛ فمن مات على الكفر فإنه يدخل النار خالدا مخلدا فيها - والعياذ بالله -.

النوع الثاني: دخول إلى أمَد، وهذا لعصاة الموحدين، فمن مات على التوحيد وعنده معاصٍ، وشاء الله أن يُعذِّبَهُ فإنه يُعذبه بالنار لكنه إلى أمد، بحسب علم الله وبحسب أعمال العباد.

واعلم أنه قد يجتمع في الموحِّدِ طاعةُ الرسول ﷺ ومعصيتُه؛ وهذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه. وإن عذَّبَه فإنه لا يُخلَّد في النار

(١) تقدم تخريجه.

كما سبق، والدليل - كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦].

- قوله: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾»:

الخطاب لكفار قريش والمشركين.

- وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾:

الرسول يشهد على هذه الأمة بما عَمِلت، والأمة تشهد لهذا الرسول بالبلاغ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]» وَالوَسَطُ: العَدْلُ(١).

- وقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾: وهو نبيُّ الله موسى ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣٩).

- وقوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، أي: أخذا شديدا.

فخلاصة هذه المسألة هي إثبات الربوبية والرسالة.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان المسألة الثانية من المسائل الثلاث، فقال:

«الثانية: أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]».

الشرح:

هذه هي المسألة الثانية، وحاصلُها: وجوب إفراد الله بالعبادة، وأن الله لا يرضى أن يُشرَك معه أحد مهما كان، ولو كان ملَكا مُقربا عند الله أو نبيا مرسلا، وهؤلاء أفضل أصناف المخلوقات: الملائكة والرسل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

- ثم استدل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨].

وفي المراد بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾، أقوال لأهل العلم؛ منها:

القول الأول: أن المساجد جمع مَسجِد على وزن مَفعِل، اسم مكان، يعني موضع السجود، وهي الأماكن التي بُنيت للصلاة وذكر الله.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يُوَحِّدُوه وحْدَه[1].

والمعنى على هذا القول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾، يعني: أماكن العبادة.

القول الثاني: أن المراد بـ ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: أعضاءُ السجود. قال سعيد بن جبير: «نزلت في أعضاء السجود»[2]، يعني: هذه الأعضاء لله فلا تسجدوا بها لغيره، وعلى هذا القول تكون جمع مسجَد بفتح الجيم.

وكما في الحديث عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ**»[3].

وقريبٌ من هذا القول من جعل ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ جمع مسجَد، مصدر ميمي بمعنى السجود، يعني: وأن السجود لله لا يكون لغيره.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٦٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٤٤).

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠).

وعلى كلٍّ: المساجد المبنية أو الأماكن التي يُعبد الله فيها، وكذلك الأعضاء التي تكون لهذه الهيئة وهي السجود، كلها إنما تكون لله لا لغيره، فلا يجوز أن يُدعى وأن يُعبد مع الله غيرُه.

- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾:

يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فدعاء المسألة: يعني الطلب والسؤال، ودعاء العبادة: يعني جنس العبادات، كما قال ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»(١).

- وقوله: ﴿أَحَدًا﴾: هذه نكرة في سياق النهي فتُفيد العموم، أي: جميع من يعبد من دون الله، كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»، يعني: إذا كان الله لا يرضى لهؤلاء فغيرهما من باب أولى.

- وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»:

كأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى مسألة الفرق بين النبي والرسول، وهذه مسألة مشهورة عند أهل العلم.

ولعل الأقرب الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الرسول هو من أُرسل إلى قومٍ مكذبين، والنبي من أُرسل إلى قومٍ مؤمنين بشريعة رسول

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، من حديث النُّعمان بن بَشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧).

قبله[1]، فهو يُعلِّمهم ويحكم بينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، فالنبيون من بني إسرائيل يحكمون بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ.

فخلاصة هذه المسألة الثانية: وجوب إفراد الله بالعبادة.

○○○

ثم انتقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان المسألة الثالثة، فقال:

«الثالثة: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

الشرح:

هذه هي المسألة الثالثة في تقرير مبدأ الولاء والبراء، فذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من أطاع الرسول ووَحَّدَ الله بأنواع التوحيد الثلاثة لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله.

---

(١) ينظر: «النبوات» (٢/ ٧١٨) وما بعدها.

هنا موالاة ومُحادَّة، فما معنى الموالاة؟

الموالاة: يعني أن تتَّخِذَه وَلِيًّا، وأصلها من الولاية وهي المحبة، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤].

فالموالاة بمعنى الحب، ولها مقتضيات من النُّصرة والقُرب وما إلى ذلك، لكن أصل معناها مأخوذ من المحبة.

وأما المُحادَّة فأصلها في اللغة: المخالفة والمجانبة والمعاداة، وهو مأخوذ من الحَدِّ، يعني كأنه في حَدٍّ، والله ورسوله في حَدٍّ آخر، فهذه هي المُحادَّة. ويُعبَّر عنها بالمشاقَّة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

إذن، من أطاع الرسول وحقَّق التوحيد بأنواعه الثلاثة يحرم عليه موالاة - أي: محبة - من حادَّ الله ورسوله، وهذا يقرِّرُ الولاء والبراء.

وأصل معنى (الولاء) هو المحبة والمودة والقرب، و(البراء) هو البُغض والعداوة. والمحبة والبغض من أعمال القلوب، أي: محلهما في القلب.

لكنَّ الولاء والبراء لهما آثار ومقتضيات تظهر على اللسان والجوارح؛ فالنُّصرة والأنس والمعاونة والهجرة ونحو ذلك، كلها من آثار ومقتضيات الموالاة، وأضدادها من آثار ومقتضيات البراء.

ودل على هذا الأصل نصوص كثيرة في الكتاب والسُنَّة؛ منها قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣]، وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ**»(١).

وهذا شرط في الإيمان كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي

(١) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد (١٨٥٢٤)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٣٨)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله شواهد من رواية ابن مسعود، وابن عباس، وأبي ذر، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٨): «الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل».

﴿ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: «ذكَر الله جملة شرطية تقتضي أنه إذا وُجد الشرط وُجد المشروط، بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة:٨١]، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أُنزل إليه»(١).

واستشهد الشيخ – أيضا – بالآية التي في آخر سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ...﴾ [المجادلة: ٢٢]، وفيها ذكر أقرب الأقربين: الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة.

فمن حقَّق ذلك (يعني عدم مودَّة من حادَّ الله ورسوله) فليُبْشر بكرامة الله له في الدنيا والآخرة: أما في الدنيا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، يعني «كتب له السعادة وقرَّرها في قلبه، وزَيَّن الإيمان في بصيرته»(٢)؛ فهي قلوب تنورت بهذا الإيمان، نور الإيمان الذي يطرد الشُبَه والريب والشكوك.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٤).

قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أي: نور ومدد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي الآخرة قال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فهذه الكرامة الأولى؛ الخلود الأبدي في جنات النعيم، والثانية: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، فيُحِل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم. ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾، وهذا - أيضا - شرف أيما شرف، حيث أضافهم إلى نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فحكم بفلاحهم، والفلاح: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهي من الكلمات الجامعة.

فهذه فضائل عظيمة، بل خيرات جليلة، في الدنيا والآخرة لمن حقق هذا الأصل المتين ، وهو تحقيق الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين، والله أعلم.

○○○

المبحث الثالث: الحنيفية، وبيان بعض الأوامر والنواهي:

بعد أنْ فرَغَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بيان هذه المسائل الثلاث بأدِلَّتِها، انتقل إلى بيان معنى الحنيفية ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أمر له تعلُّق شديد بموضوعات الكتاب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ -، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يُوَحِّدُونِ».

الشرح:

- استفتح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسألة بقوله: «اعْلَمْ»، وهذا فيه عناية وشَحْذ وجذب وشد انتباه للمتعلم والسامع والقارئ لينتبه إلى ما بعده، وقد سبق الكلام عليه.
- قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ»:

هذا من شفقة المؤلِّف أن دعا للمتعلم بالرُّشْد، والرُّشْد: هو الاستقامة على طريق الحق، وهو ضد الغواية[1].

(١) ينظر: «المفردات» ص٣٥٤، و«شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين ص٧٣.

والطاعة: هي موافقة الأمر؛ فعلا للمأمور وتركا للمحظور، ويُقابلها المعصية[1].

- وقوله: «الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ»:

الملة هي: الدين والشريعة.

والحنيفية مأخوذة من الحَنَف، وقد وردت هذه اللفظة في قوله ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»[2].

وورد في القرآن ﴿**حَنِيفًا**﴾ في عشرة مواضع، و﴿**حُنَفَآءَ**﴾ في موضعين.

وأصل هذه الكلمة من الميل[3]، فالحنف ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجَنَف ميل عن الاستقامة إلى الضلال[4]؛ فهذه الحنيفية هي ملة إبراهيم شيخ الموحدين ﷺ.

وما هي؟

---

(١) «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين ص٧٣.

(٢) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد (٢٢٢٩١)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٦٨)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقواه الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).

(٣) قال ابن الأثير في «النهاية» (١/ ٤٥١)، مادة «حَنَف»: «الحنفاء جمع حنيف: وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه، والحنيف عند العرب: من كان على دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأصل الحَنَفِ: الميل».

(٤) «المفردات» ص ٢٦٠.

- بيَّن لك الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحنيفية التي هي ملة إبراهيم، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ» يعني: هي عبادة الله «وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ».

والعبادة تُطلق على الفعل وعلى المفعول؛ فإطلاقها على الفعل بمعنى التعبُّد، ومعناها: غاية التذلل لله[1] مع المحبة والتعظيم، ولهذا يقال: طريق مُعبَّد، أي: مذلل.

وأما إطلاقها على المفعول؛ فكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[2].

فيدخل في هذا كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، سواء كانت ظاهرة كالصلاة والزكاة، أو باطنة كأعمال القلوب كالخوف والرجاء والتوكل والمحبة ونحو ذلك.

- وقوله: «مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»:

هذا فيه إشارة إلى شرطَي قبول العمل، وهما: الإخلاص والمتابعة.

والإخلاص معناه: أن يقصد المرء بعبادته وجهَ الله - تعالى -، ونيلَ ثوابه والوصولَ إلى جنته، بحيث لا يكون عمله وعبادته رياءً للناس أو طلبا لشيء من حُطام الدنيا.

---

(١) السابق ص٥٤٢.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

وهذه الحنيفية بهذا التفسير (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)، ليست خاصة بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل هي ملة الرسل والأنبياء جميعا، لكنها أضيفت إلى إبراهيم؛ لأن الله أضافها إليه في كتابه العزيز في ثمانية مواضع؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، إلى آخره.

- قال: «وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ»:

الناس يعني البشر، ولا يُطلق اسم الناس على الجن.

- وقوله: «وَخَلَقَهُمْ لَهَا»:

أي: أمرهم وخلقهم لهذا الغرض؛ وهو إفراد الله وحده بالعبادة مخلصا له الدين.

- قال: «كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]»:

ومعنى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يوحِّدون، وتفسير العبادة بالتوحيد تفسير بالجزء الأهم، فالتوحيد جزء من العبادة، وهو مقصود العبادة وأصلها(١).

وذكر أهل العلم أن العبادة نوعان:

الأول: عبادة كونية:

ومعناها الخضوع لأمر الله الكوني، وهذه شاملة وعامة لجميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فالجميع عبيد لله بهذا المعنى، سائرون تحت تصرفه وملكه، يُدَبِّرُهم كيف يشاء، لا يخرج أحد منهم عما أراده الله وقضاه.

الثاني: عبادة شرعية:

وهي الخضوع لأوامر الله بالامتثال، ولنواهيه بالانتهاء والاجتناب، وهذه هي العبادة المطلوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

○○○

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٥): «أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لَا لِاحتياجي إليهم».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ».

الشرح:

التوحيد: مصدر وحَّدَ يوحِّد توحيدًا، أي: جعل الشيء واحدًا(١).

وفي الاصطلاح: قال: «هُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ»(٢)؛ كأنه يُشير إلى التوحيد الذي وقعت فيه الخصومة بين الرُّسُل وأممهم، والتوحيد الذي لأجله أرسل الله الرسلَ وأنزل الكُتب.

والتوحيد: أن يُوحَّد اللهُ بما يجب له، وهو ثلاثة أقسام ، أن يُوحَّد في ربوبيته، ويُوحَّد في ألوهيته، ويُوحَّد في أسمائه وصفاته.

لكن هذا النوع من التوحيد - توحيد الإلهية - وهو الذي عرَّفه الشيخ (إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ)، هذا هو التوحيد الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأقوامهم.

مسألة: خصائص توحيد الألوهية (العبادة):

الأول: أنه الغاية من خلق الجن والإنس؛ ولذا استشهد المؤلِّف بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) ينظر: «لسان العرب» مادة «وحد» (٣/ ٤٤٩).

(٢) هذا تعريف المؤلف، وله تعريفات أخرى.

الثاني: أنه المقصود الأعظم من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

الثالث: أنه أول واجب على المُكلَّف، وهو مفتاح دخوله في الإسلام: أن يوحِّد اللهَ بالألوهية، وينطِق بكلمة التوحيد.

الرابع: أنه أول ما يُدعى إليه الناس، كما أوصى النبي ﷺ معاذا لما بعثه إلى اليمن، قال: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»(١)، وفي لفظ: «**يُوَحِّدُوا اللَّهَ**»(١).

الخامس: عِظَمُ خطره وأثره؛ فالمخالفة في هذا النوع توقِع المرء في الشرك الأكبر، الذي هو من أكبر المهالك، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

وصاحبه مخلَّد في النار، ولا يقبل الله معه شيئا من الأعمال؛ قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر: ٦٥]، فالآثار خطيرة وعظيمة.

---

(١) تقدم تخريجه.

السادس: أن تحقيقه كفيل بدخول الجنة؛ من حقق هذا التوحيد فقد وعَدَه الله – ووعدُه حَقٌّ وصدق – أنه في الجنة. فإنْ كان معه شيء من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، لكنَّ مآله إلى الجنة، فلا يُخلَّد في النار لو دخلها.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه: الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ».

الشرح:

من أعظم ما نهى عنه النبي ﷺ أن يُشرِك المرءُ مع الله غيرَه في شيء من أنواع العبادة، وقد تكاثرت النصوص في النهي عن هذا وتعظيمِه، قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا**﴾ [النساء: ١١٦]، وقال: ﴿**إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].

وسُئل ﷺ: أي الذنب أعظمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١)، وقال ﷺ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**»(٢).

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٩٣)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم أتبَع الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المسألة العظيمة بذكر دليلها، فقال:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٥]».

الشرح:

وهذا يقرِّر ما سبق: أن الواجب إفراد الله بالعبادة، والنهي عن الإشراك به، فقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، جاءت كلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي فتشمل أيَّ شيء، ولو كان مَلَكا مُقَرَّبا، أو نبيا مُرسَلا.

وفي الآية دلالة على كون التوحيدِ أعظمَ المأمورات والشركِ أعظم المنهيات؛ لأنَّ هذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة، وقدَّم اللهُ فيها حقه بتوحيده، والنهي عن الإشراك به.

وينبغي على المسلم الحذر من الشرك كبيره وصغيره، جَلِيِّه وخَفِيِّه، قليلِه وكثيرِه، وأن يعتني بتحقيق التوحيد وإفراد الله بالعبادة.

وهذه كلمات مختصرة وتفصيلها في شرح أبواب كتاب «التوحيد» للمصنِّف، والله أعلم.

* * *

الفصل الثاني: الأصول الثلاثة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأصل الأول: معرفة العبد ربه، وأنواع العبادة:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ».

الشرح:

شرع المؤلف هنا في المقصود من هذا المتن، وهو «الأصول الثلاثة» أو «ثلاثة الأصول»، فبدأ بالأصل الأول.

والأصل هو: ما يُبنى عليه غيره[1]، كما يقال: أصل الجدار، يعني أساسُه وقاعدته التي يُبنى عليها بقيته.

---

(١) «التعريفات» ص ٢٨.

هذه الأصول الثلاثة تكمُن أهميتها - كما سبق - في أنها أسئلة القبر الثلاثة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فهذه مسائل عظيمة جدا، وتشتد الحاجة الماسَّة إلى العلم واليقين بها والاعتقاد الصحيح في هذه المسألة؛ لأنه ما من ميت إلا ويُسأل هذه الأسئلة في الجملة، فأما المؤمن فيُوفَّق للجواب الصحيح، وأما الكافر أو الفاجر فيقول: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي[1]، فينالُه ما ينالُه من العذاب، نسأل الله العافية.

والكلام على الأصل الأول (معرفة العبد ربه)، في مسائل:

المسألة الأولى: المراد بهذا الأصل:

- قوله: «مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ»:

هذا من باب إضافة المصدر إلى فاعله، يعني أن يعرف العبدُ ربه، و«رَبَّهُ» مفعول المصدر.

والمراد بمعرفة الله - عز وجل -: الإقرار الجازم بالله - تعالى - رَبًّا ومعبودا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، فمعناها قريب من معنى الإيمان بالله، فعلى هذا تتضمن أربعةَ أشياء: الإيمان بوجود الله، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، هذا هو المقصود بمعرفة العبدِ رَبَّه.

---

(١) **ينظر**: سنن أبي داود (٤٧٥٣)، ومسند أحمد (١٨٥٣٤)، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ورد هذا اللفظ في بعض النصوص كما جاء في حديث بَعْث معاذ إلى اليمن، أن النبي ﷺ قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ** ...»[1].

وفي حديث ابن عباس المشهور قال ﷺ في وصيته: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّة**»[2].

وذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معرفة العبد رَبَّه نوعان:

«**الأول**: المعرفة العامة: وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين، يعني كل مؤمن يُقِر بالله - عز وجل - ربا ومعبودا، ويُصدِّق بذلك.

الثاني: معرفة خاصة: تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: ما هو؟ قال: معرفة الله - عز وجل -»[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٢٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦١)، وعند الترمذي (٢٥١٦) بدون هذه العبارة.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٧٣).

المسألة الثانية: لازم المعرفة:

يعني إذا عرف العبدُ رَبَّه، فما الذي يلزم من ذلك؟

الجواب: معرفة الله - عز وجل - تستلزم قبولَ ما جاء به النبي ﷺ، والامتثال فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]، فلازم المعرفة: قبولُ ما شرعه الله - عز وجل - على لسان رسوله ﷺ، والانقياد والإذعان لذلك.

المسألة الثالثة: معنى الرب:

- قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ»، وقال: «فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ».

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأظهر أنه مشتق من (ربَّه)، بمعنى: رَبَّاه وساسه، فكلمة الرب مشتقة من هذا الفعل: رَبَّه يَرُبُّه، بمعنى: رباه وساسه، فهي من التربية»[(١)].

ونحو ذلك قولُ الراغب: «الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهي إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حَدِّ التمام، يقال: رَبَّه ورَبَّاه ورَبَّبَهُ»[(٢)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١/ ١٦٦).

(٢) «المفردات» ص ٣٣٦.

وقيل: إن رب بمعنى مالك.

فيكون فيها معنيان: الأول أنه مشتق من ربَّى بمعنى رَبَّاه وساسه، والثاني أنه بمعنى مالك، فقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: مالكهم.

وكلا المعنيين صحيح؛ فـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: أن الله - تعالى - مالكنا الذي أوجدنا وأمدنا وربانا بنعمه، والتي نتنقل فيها يوما بعد يوم؛ فضلا من الله ونعمة.

قال فرعون في حواره مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٤٩- ٥٠].

ولعل من الأمثلة الجَلِية: الجنين في بطن أمه؛ كيف أن الله - عز وجل - يُرَبِّيه ويُنشِئُه شيئا فشيئا، ويُمِده بالغذاء وما يحتاجه حتى يأذن الله بخروجه، ثم يُمِده بنعمه بعد خروجه وهو طفل صغير، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، فنِعَم الله - عز وجل - جارية وسابغة على العباد، فهو ربهم الذي رباهم بنعمه.

فإذا كان الأمر كذلك وهذا فضل الله علينا، كان هو المعبود الذي لا يجوز أن يُعبَد غيره، كما سيُقرِّر المؤلف بعد ذلك بقوله: «وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ».

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]».

الشرح:

﴿الْحَمْدُ﴾: «أل» هنا للاستغراق، يعني: استغراق جميع أنواع المحامد لله استحقاقا واختصاصا، فالحمد المطلق الكامل يستحقه الله ويختص به.

و«الحمد» لغة: ضِدُّ الذم، واصطلاحا - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه»(١).

○○○

ثم بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى العالَمِ، فقال:

«وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ».

الشرح:

المسألة الرابعة: المراد بالعالمين:

«العالَم»: تجمع على العالَمِين، ولم يُجمع «فَاعَل» هذا الجمع إلا في لفظين، كما ذكر ذلك ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عالم وياسَم - اسم للزَّهر المعروف بالياسمين -، جمعوه على ياسَمون وياسمين. والعالَم: الجنس من أجناس الموجودات، وبَنَتْه

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

العرب على وزن (فَاعَل) بفتح العين، مشتق من العِلم أو من العلامة»[1]، كأن كل صنف من هذه المخلوقات علامة على خالقها.

وجاء في هذه الكلمة أثرٌ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: «له الخَلق كله، السموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن وما بينهن، مما يُعلم ومما لا يُعلم. يقول: اعلم - يا محمد - أن ربك هذا لا يشبهه شيء»[2].

وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره أيضا عن قتادة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: «كُلُّ صِنْفٍ عَالَمٌ»[3].

فكل جنس من أجناس المخلوقات عالَم، فعالم الطير وعالم الأسماك وعالم الزواحف وهكذا، لا يعلمها إلا خالقها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤]؛ فهذا كأنه تفسير لـ﴿الْعَالَمِينَ﴾.

○○○

(١) «التحرير والتنوير» (١/١٦٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٤٣)، وضعَّف إسناده العلامة أحمد شاكر.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٤٦)، وقال صاحب «الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (١/٨١): «إسناده حسن».

ثم أفاضَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما تحصُل به المعرفة، فقال:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

الشرح:

المسألة الخامسة: بم تحصل هذه المعرفة؟

- ذكر الشيخ هنا الطريق إلى حصول هذه المعرفة، فقال: «بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ»:

والآيات: جمع آية وهي العلامة، وآيات الله نوعان:

الأول: آيات كونية: وهي مخلوقاته؛ كالشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والبحار، وما إلى ذلك.

الثاني: آيات شرعية: وهي الآيات المتلوة (القرآن).

فهنا عطَف المخلوقات على الآيات؛ فإذا فسرنا الآيات بأنها الآيات الكونية والشرعية فهنا العطف يكون من باب عطف الخاص على العام، وهذا هو الظاهر؛ لأنه قال: «وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ»، فهذا يدل على أنه يريد بالآيات: الآيات الكونية والشرعية، والآيات الشرعية كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩].

فتحصُل معرفة الله - عز وجل - بالنظر والتأمل والتفكر في الآيات الكونية، والتدبر في الآيات الشرعية، فكُلَّما أكثر الإنسان من التفكُّر في مخلوقات الله وآياته، وقلَّب النظر في بديع صُنعه وإتقان خَلقه؛ أورث له ذلك زيادة في إيمانه وقويت معرفته بربه.

وكذلك التدبر، فكلما تدبر الإنسان في كتاب الله وتأمل، وألقى السمع وهو شهيد، وأحضر القلب؛ أورث له ذلك أيضا زيادة في إيمانه وقوة في معرفته بربه.

وذكر الشيخ أمثلة على الآيات والمخلوقات «اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ»، و «السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا»، وذكر بعض الأدلة على ذلك التي تدل على هذه الآيات وعظيم خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك.

وفي الآيات التي ساقها: قولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما سبق تقرير ذلك، وكذلك الأمر؛ الأمر الكوني والأمر الشرعي، كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأمر الكوني: هو القضاء والقدر؛ فالجميع سائرون تحت أمر الله، خاضعون لتدبيره – تعالى – فيهم، لا يملك أحد أن يخرج عن أمره – سبحانه –.

وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمر الشرعي؛ فمن امتثله فهذا هو المؤمن المُصدِّق، ومَن جحده أو أعرض عنه فهذا هو الكافر أو العاصي.

ووجه دلالة هذه المخلوقات على معرفة الله – تعالى –: إتقان الصنعة وإبداع الخَلق.

فالنظر في إتقان الصنعة وإبداع الخلق لتلك المخلوقات يدل على أن لها خالقا، فلا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسها، ولا يمكن أن توجَد بدون موجِد

هكذا صدفة، فكان لابد من نظر وتأمل وتفكر في هذه المخلوقات العجيبة البديعة وما فيها من إحسان الصنعة وإتقان الخلق، وهذا النظر يورث قوة إيمان ومعرفة بأن لها خالقا، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما سبق في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وذكروا في هذا قصة للإمام أبي حنيفة لما أراد أن يُناظِر قومًا من الملاحدة من طائفة يُقال لها السمنية، فتأخر عنهم، فلما جاءهم أخبرهم أنه رأى عجبا؛ رأى الأخشاب والمسامير تطير في الهواء، ثم اجتمعت وكوَّنَت سفينة، ثم جرت هذه السفينة على أحسن نظام تمخَرُ عُباب النهر، وليس فيها أحد يقودها. فتعجبوا من هذا، وقالوا: هذا جنون. فقال: سبحان الله، كيف تُنكِرون هذه السفينة وأنتم تنكرون هذا الخَلق العظيم، تجحدون أن له خالقا مدبرا صانعا ؟!(١).

ويوصَى في هذا الباب بكتاب «مفتاح دار السعادة» للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه تكلم على أسرار المخلوقات، وبديع خلق الله – جل وعلا –.

○○○

- وقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ»:

يعني: أن الرَّبَّ الذي تقرر معناه ودليله فيما سبق؛ هو الذي يستحق العبادة وليس غيره، ولهذا يقولون: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أقر

(١) سبق تخريجها.

بالله رَبًّا خالقا مالكا مُدَبِّرا، لزم من ذلك أن يوحده ويُفرده في العبادة. هذا معنى قوله: «وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ».

ولهذا قال: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ...﴾[البقرة: ٢١]»، ففيه إشارة إلى أنه لمَّا أقررتم أنه الرب، وهو ربكم، فكان هو المستحِقَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للعبادة، ولهذا قال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، فهم إن سألتهم: من خلقهم؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، لكن مع ذلك أشركوا بالله غيره، فالله – عز وجل – قرَّرَهم على توحيد العبادة بإقرارهم بتوحيد الربوبية، بأفعال الله: الخلق والرزق ونحو ذلك.

وهذه الآية أول أمر في القرآن، مَن يقرأ القرآن مِن أوَّلِه فأولُ أَمْرٍ يأتيه في كتاب الله هو هذا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ممهدة، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفًا محفوظًا، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، فمن كانت هذه صفتَه فلا يليق أن يكون له نِدٌّ وشريك ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، إنه لا ندَّ له يستحق العبادة ولا نظير له، وإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بيده الخلق ويُدبر الأمور؛ فهو الرازق المالك المتصرف، فلا يصح أن يُجعل له شريك في العبادة.

ونقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاء هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ». وهذه العبارة ذكرها الشيخ بالمعنى، وإلا فكلام الحافظ ابن

كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية قال: «ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقُهم، فبهذا يستحق أن يُعبَد وحده ولا يُشرَك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]»[1]، والله أعلم.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر أمثلة وأنواع للعبادة، فقال:

«وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ - تَعَالَى -، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]».

الشرح:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنواع العبادة، والعبادة معناها التذلل، فيقال: طريق مُعبَّد، أي مُذَلَّل، ذللته الأقدام.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٤).

وفي الاصطلاح: تُطلَق العبادة على الفعل وعلى المفعول.

فتُطلَق على التعبُّد الذي هو فعل الإنسان، فتُعرَّف - حينئذ - بأنها: التذلل والخضوع لله - تعالى -، مع المحبة والتعظيم.

وتُطلق على المفعول (كالصلاة، مثلا)، فتُعرَّف - حينئذ - بما عرَّفها به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»(١).

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أصول العبادات ترجع إلى هذه الأشياء الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، وهذه الثلاثة هي الدين الإسلامي الذي بعث الله نبيه محمدا ﷺ به، وسيأتي تفسيرها - إن شاء الله - في الأصل الثاني (معرفة دين الإسلام).

- ثم قال: «وَمِنْهُ»: يعني مما أمر الله به من العبادة «الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ»، إلى آخره.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة عشر نوعا من أنواع العبادات مقرونة بأدلتها، وهذه العبادات حين التأمل نجد أنها متنوعة إلى ثلاثة أنواع:

الأول: عبادات قلبية؛ كالخوف، والرجاء، والتوكل، والخشية.

الثاني: عبادات قولية؛ كالدعاء، والاستعانة، والاستعاذة.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

الثالث: عبادات فعلية؛ كالذبح.

وينبغي حين ندرس هذه العبادات أن نعتني بثلاثة أمور:

أولا: معرفة معنى العبادة.

ثانيا: معرفة الدليل على كونها عبادة.

ثالثا: معرفة وجه الدلالة من ذلك الدليل.

- وقوله: «وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ - تَعَالَى -»: يعني أن ما ذكره على سبيل المثال لا الحصر؛ فليست هذه كلَّ العبادات، وإنما بعض العبادات.

- ثم ذكر دليلين على وجوب إفراد الله بالعبادة، وكُفر من دعا معه غيره، فقال: «وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]»، والمساجد في الآية: يراد بها أماكن السجود أو أعضاء السجود، وكلّها لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. والدعاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: يشمل دعاء العبادة، ودعاء المسألة، كما سبق الكلام عن هذه الآية.

والدليل الثاني: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]»: و﴿إِلَٰهًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ نكرة في سياق الشرط فتُفيد العموم، لكن قوله: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، هذه - كما يقول العلماء -:

صفة كاشفة، يعني لبيان حقيقة الأمر: أن كل من يدعو مع الله إلها آخر فليس له برهان، ليس له حجة ولا دليل. ولا يُفهم أن هناك من يدعو مع الله إلها آخر وله برهان عليه! كلا؛ بل هذه صفة كاشفة لبيان الحال، وليست قيدا، فالعبارة هنا ليس لها مفهوم.

- وقوله: «فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ»: الكفر أعم مِن الشرك؛ فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركا؛ فالملحد – مثلا – كافر وليس بمشرك.

وأمثلة العبادات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ فيها بالدُّعاء، وهو عبادة من أعظم العبادات، ويتعلق به ثلاث عبادات أخرى ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ متصلة بالدعاء؛ وهي: الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة. كل هذه الثلاث لها تعلق بالعبادة الأولى (الدعاء)، فنشرع في الكلام على الدعاء، وهذا في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الدعاء:

يُطلق الدعاء على المصدر، ويُطلق على المفعول، كما سبق في العبادة.

فيُطلق على المصدر الذي هو التكلم؛ فالإنسان حينما يسأل الله، فتكَلُّمه هذا دعاء. فإذا قال الإنسان – مثلا –: «اللّٰهم اغفر لي»، فتكَلُّمه هذا دعاء.

ويُطلق – أيضا – على المفعول الذي هو الألفاظ، فإذا قال الإنسان – مثلا –: «اللّٰهم اغفر لي»، فهذه الحروف الملفوظة دعاء.

وعُرِّف الدعاء في الاصطلاح بتعاريف مُتقاربة المعنى؛ ومما يقال في تعريفه: التوجه إلى الله – تعالى – وسؤاله تحقيق مطلوب أو دفع مكروه، أو التذلل له بالطاعة. وهذا التعريف يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

المسألة الثانية: أقسام الدعاء:

الدعاء قسمان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة.

أولا: دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع؛ من تحصيل مطلوب أو دفع مكروه.

ثانيا: دعاء العبادة: ويراد به التعبُّد، يعني العبادات عموما، مهما كان جنسها أو نوعها، فكل عبادة فهي دعاء عبادة.

المسألة الثالثة: العلاقة بين دعاء المسألة ودعاء العبادة:

هناك ارتباط وثيق بينهما، فدعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة؛ لأنه حينما يتوجه المسلم إلى ربِّه ويسأله حاجاته فهو الآن في عبادة، فهذا السؤال وهذا الطلب عبادة.

وأما دعاء العبادة فهو يستلزم دعاء المسألة، يعني: يدل عليه بدلالة الالتزام وكذا بدلالة التضمن – أيضا –.

حينما يفعل المسلم عبادة لله – عز وجل–، يُصلي، أو يصوم، أو يجاهد في سبيل الله، فإن هذا التعبد وهذه العبادات في حقيقتها سؤال بلسان الحال، وإن

لم يتكلم؛ لكن بلسان الحال، هذه العبادات تتضمن وتستلزم دعاء المسألة، كيف ذلك؟

لأن هذا العابد لو سألته لماذا تفعل ذلك؟ لقال: أطلب ما عند الله، أريد ثوابه وجنته، والسلامة من عقابه وناره. إذن، هذه العبادة تضمنت واستلزمت دعاء المسألة، فكل عابد لله - بأي نوع من العبادة - فهو في حقيقة الأمر يسأل الله بلسان حاله أن يثيبه ويجزيه الجزاء الحسن على هذه العبادة، وأن يحفظه ويصرف عنه الشر والعذاب بالنار يوم القيامة، أو العذاب في القبر.

فرع: أمثلة على قسمي الدعاء:

من أمثلة دعاء المسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**﴾ [النمل: ٦٢]، فهنا دعاء مضطر وفيه سؤال وطلب.

ومن أمثلته قوله - عز وجل - أيضا: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ**﴾ [يونس: ١٢]، وهنا سؤال وطلب.

ومن أمثلة دعاء العبادة: قوله - عز وجل -: ﴿**قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...**﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [العنكبوت: ٤٢].

المسألة الرابعة: الأدلة على هذه العبادة:

ذكر الشيخ دليلين: حديثا وآية.

- قال: «وَفِي الْحَدِيثِ: «**الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ**»[1]»: وهذا الحديث أخرجه الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي سنده ضعف. والصحيح اللفظ الآخر من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[2]، فهذا نص صريح بأن الدعاء عبادة، بل كأنه حصر العبادة في الدعاء.

والدليل الآخر قوله - عز وجل -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ...﴾ [غافر: ٦٠]، فعبَّر عن الدعاء بالعبادة مما يدل على أن الدعاء عبادة.

المسألة الخامسة: حكم دعاء غير الله:

الدعاء عبادة، والعبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

وتأصيلا للمسألة يقال: إن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، و الطبراني في «الدعاء» (٨)، وقال الترمذي: «حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة»، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠٠٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأول: دعاء مشروع:

وهو دعاء الله – عز وجل – سواء كان دعاء مسألة أو دعاء عبادة، وهذا القسم قد يكون واجبا وقد يكون مستحبا.

الثاني: دعاء غير مشروع:

وهو أنواع متفاوتة؛ فمنه: الدعاء الشركي، والدعاء البدعي، والدعاء المحرم، والدعاء المكروه. والخوض في تفصيلات هذه الأنواع يطول، ولا يحتمله شرح هذا المختصر.

متى يجوز دعاء المخلوق؟

إذا كان الدعاء لحيٍّ حاضر قادر، فهذا ضابط الجواز.

فلا يُدعى الأموات، ولا يُدعى الأحياء الغائبون، ولا يُدعى الأحياء الحاضرون غير القادرين، كما لو سألتَ إنسانا عندك أن يشفي المريض، أو أن يُنزل الغيث، أو أن يهب الولد، فهذا خارج عن قدرته؛ فلا يجوز.

ولو قال قائل لآخر: أسألك أن تحمل هذا المتاع إلى بيتي، فهذا سؤال لحي حاضر قادر، فليس محرما.

المسألة السادسة: العلاقة بين الدعاء والعبادة:

العلاقة بين الدعاء والعبادة بحسب قسمي الدعاء، فإن كان الدعاء دعاء العبادة؛ فالعلاقة بينهما هنا علاقة ترادف؛ لأن دعاء العبادة هو العبادة.

وأما إن أريد بالدعاء دعاء المسألة؛ فالعلاقة بينهما علاقة عمومٍ وخصوصٍ مطلق، فالعبادة أعم مطلقا، بمعنى: كل دعاء فهو عبادة، وليس كل عبادة دعاء.

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى دليل نوع آخر من أنواع العبادة، فقال:

«وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]».

الشرح:

هذه العبادة الثانية، وهي الخوف، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الخوف:

قال الراغب: «الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. ويُضاد الخوف الأمن، ويُستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية»(١).

المسألة الثانية: دليل كون الخوف عبادة:

الدليل على أنه عبادة قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فقد أمر الله عباده أن يخافوه، وهذا يدل على أنه يُحِب هذا الأمر، ومحبة الله له تدل على أنه عبادة من العبادات.

(١) «المفردات» ص٣٠٣.

المسألة الثالثة: أقسام الخوف:

يمكن أن يُقسَّم الخوف إلى خمسة أقسام؛ باعتبار الأحكام التكليفية:

القسم الأول: خوف واجب، وهو الخوف من الله - تعالى - الذي يحمل على فعل الواجب وترك المحرم.

القسم الثاني: خوف مستحب، وهو الخوف من الله - تعالى - الذي يحمل على فعل المندوب وترك المكروه.

القسم الثالث: خوف مباح، وهو الخوف الطبيعي؛ كخوف الإنسان من الأسد، وخوفه من النار، ونحو ذلك؛ قال الله عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾ [القصص: ١٨].

القسم الرابع: خوف مكروه، وهو الخوف الذي يؤدي إلى فعل مكروه أو ترك مندوب.

القسم الخامس: خوف محرم، وهذا له صور قد تصل إلى الشرك؛ كأن يخاف من المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله، أو أن يتعبد لهذا المخلوق بالخوف منه، فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

ومنه ما يُسمى «خوفُ السر»، وهو أن يخاف من إنسان بعيد أو ميت أن يؤثر فيه وأن يتصرف فيه؛ فهذا لا يحصل إلا عن اعتقاد أن لهذا المخوف تصرفا وقدرة في الكون، وهذا يقع من عُبَّاد الأوثان والمتعلقين بالأضرحة ونحوهم.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر دليل الرجاء، فقال:

«وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

الشرح:

هذه العبادة الثالثة: الرجاء، والكلام عليها في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الرجاء:

قال الراغب: «الرجاء: ظن يقتضي حصول ما فيه مسَرَّة»(١).

وقال الجرجاني: «الرجاء: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل»(٢).

المسألة الثانية: دليل الرجاء:

- قال: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: يشمل كونَه يأمل ثواب الله، ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة، وأيضا ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: أنه يخشى عقابه، فمن كان راجيا يوم يلقى ربه الثواب على عمله والسلامة من كل شر، إن كان يرجو هذا ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

---

(١) «المفردات» ص ٣٤٦.

(٢) «التعريفات» ص ١٠٩.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ﴾: ذكر أهل العلم أن اللقاء يوم القيامة نوعان:

الأول: لقاء خاص: وهذا للمؤمنين، والمراد به لقاء الرضا والنعيم والثواب، ومنه هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ﴾، يعني: لقاء نعيم وثواب وإكرام.

الثاني: لقاء عام: وهذا يشمل الناس جميعا، ودل عليه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، على القول بأن الضمير في ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ يعود إلى الرب، وذكر بعدها أحوال الناس ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧]، ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠].

المسألة الثالثة: أنواع الرجاء:

النوع الأول: الرجاء المحمود: وهو الرجاء مع العمل، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ﴾، فهو يعمل بالطاعة ويجتهد في العبادة، وإذا حصلت منه هفوة أو ذنب سارع بالتوبة والندم، فهذا يرجو المغفرة، يرجو العفو، يرجو ما عند الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

النوع الثاني: الرجاء المذموم: وهو رجاء من فرَّط في أمره وركب الذنوب، فهو يرجو رحمة الله بلا استعداد ولا عمل، وهذا في الحقيقة غرور وأماني كاذبة.

ترجو النجاة ولم تسلكْ مسالكَها إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ[1]

وهذا مِن الفَرق بين الرجاء والتمني: الرجاء يكون معه عمل، والتمني يكون مع الكسل، قال الله – تعالى –: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى دليل التوكل، فقال:

«ودَلِيلُ التَّوَكُلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

الشرح:

هذه العبادة الرابعة: التوكل، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى التوكل:

التوكل لغة: هو الاعتماد[2].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٧٣/ ٣٠٤)، والبيت ينسب لأبي العتاهية.

(٢) ينظر: «مقاييس اللغة» (٦/ ١٣٦)، مادة «وكل».

واصطلاحا: هو الاعتماد على الله - تعالى - في جلب المنافع ودفع المضار، مع بذل الأسباب[1].

المسألة الثانية: دليل التوكل:

ذكر الشيخ آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فهذا أمرٌ بالتوكل على الله وحده؛ لأن تقديم ما حقه التأخير - وهو الجار والمجرور هنا - يقتضي الحصر، يعني: توكلوا على الله وحده دون ما سواه.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، يعني كافيه، فإذا كان الله - عز وجل - يتولى من يتوكل عليه بالكفاية، ويكفيه أمره، فهذا يدل على محبته لهذا العمل، ومحبته للشيء تدل على أنه عبادة؛ فالتوكل عبادة قلبية من العبادات العظيمة.

المسألة الثالثة: أنواع التوكل:

التوكل نوعان:

النوع الأول: توكل على الله. وهذا له صورتان:

الأولى: أن يتوكل العبدُ على الله في تحصيل حظِّه من الرزق والعافية والمصالح الدنيوية.

---

(١) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١١٨)، «جامع العلوم» (٢/٤٩٧).

الثانية: أن يتوكل العبدُ على الله في تحصيل مرضاته وعبادته، ونحو ذلك.

ففي الصورة الأولى التوكل في حصول المطلوب عبادة، وإن كانت الغاية ليست عبادة، لكن الوصول إليها تضَمَّن عبادة؛ حيث إن العبد اعتمد على الله ربِّه وخالقه ومالكه في تحصيل هذا الأمر الدنيوي.

وأما الصورة الثانية فالمطلوب عبادة في نفسه، والوسيلة إليه عبادة – أيضا –؛ لأنه يتوكل على الله في تحصيل ما يُرضيه وما يُقربه لديه من عبادات، ونحو ذلك.

النوع الثاني: التوكل على غير الله. وهذا له صورتان – أيضا –:

الأولى: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا شرك أكبر.

الثانية: أن يتوكل على حيٍّ حاضر قادر؛ بحيث يعتمد ويتعلق قلبُه بهذا المخلوق؛ سواء كان أميرا أو وزيرا أو مديرا أو نحو ذلك، في تحصيل ذلك الأمر المرغوب، أو في دفع الأمر المرهوب، فهذا نوع من الشرك الأصغر.

أما لو كان نظره أنه سبب، وأن الله – عز وجل – قدَّر هذا الشيء على يده، فهو سبب من الأسباب، وله دور في حصول هذا الشيء، فهذا لا بأس به كسائر الأسباب المؤثرة التي أجرى اللهُ وقدر وقضى أن تكون أسبابا في حصول آثارها ومقتضياتها.

المسألة الرابعة: الفرق بين التوكل والتوكيل:

سبق بيان معنى التوكل، وأما التوكيل: فهو أن يُنيب الإنسان غيره في أمرٍ تجوز فيه النيابة، كما لو وكَّلت رجلا في شراء سيارة.

فهذا لا بأس به، وهو الوكالة التي يذكرها الفقهاء في أبواب المعاملات، ودل عليها الكتاب والسُنة والإجماع.

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى التدليل على أنواع أخرى من العبادات، فقال:

«وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]».

الشرح:

هذه ثلاث عبادات ساقها الشيخ بدليل واحد، وهي العبادة الخامسة والسادسة والسابعة: الرغبة والرهبة والخشوع. والكلام عليها في مسائل:

المسألة الأولى: في بيان معناها:

أولا: الرغبة:

قال الراغب: «والرَّغْبَةُ والرَّغَبُ والرَّغْبَى: السعة في الإرادة»[1].

(١) «المفردات» ص ٣٥٨.

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرغبة محبة الوصول إلى الشيء المحبوب»[1].

ثانيا: الرهبة:

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مخافة، مع تحرُّز واضطراب»[2]، فهو خوف ينتج عنه هرب واحتراس وتحرز.

والرهبة طول الخوف واستمراره، ومن ثم قيل للراهب راهب؛ لأنه يديم الخوف.

والرغبة والرهبة معناهما قريب من الرجاء والخوف.

ثالثا: الخشوع:

الخشوع هو التَّطامُن والذل، ومنه قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القلم: ٤٣]، وأصله لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره، فإذا حصل هذا في القلب تبعه خشوع الجوارح؛ لأن القلب ملِك الأعضاء.

المسألة الثانية: دليل الرغبة والرهبة والخشوع:

ذكر الشيخ دليلا يجمع هذه العبادات الثلاث، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، هذه الآية في سورة الأنبياء في سياق الكلام على زكريا وآل بيته

(١) «شرح ثلاثة الأصول» للعثيمين ص ٥٩.

(٢) «المفردات» ص ٣٦٦.

- عليهم السلام-، قال تعالى : ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، فالله - عز وجل- أثنى على هؤلاء بهذه الصفات التي يُحبها ويُتعبد له بها: الرغب والرهب والخشوع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، لكن يُلاحظ أن هذه الآية المذكورة قُيِّد الرغب والرهب فيها بالدعاء.

وقد ورد في هاتين العبادتين غيرُ هذه الآية؛ فمن ذلك قوله - عز وجل -: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٨]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وهنا قدَّم الجار والمجرور، وعند علماء البلاغة تقديم ما حقه التأخير يقتضي الحصر، يعني أن الرغبة - التي هي على سبيل التعبُّد - لا تكون إلا لله، وفي الرهبة قال الله - تعالى -: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر دليل الخشية، فقال:

«وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ الآية [البقرة: ١٥٠]».

الشرح:

هذه العبادة الثامنة: الخشية، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الخشية:

قال الراغب: «الخشية: خوفٌ يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن عِلم بما يُخشى منه»[1].

فالخشية أخص من الخوف؛ لأنها مبنية على التعظيم والعلم، كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

المسألة الثانية: دليل الخشية:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾: فأمَرَ الله بخشيته، وهذا يدل على محبَّتِه لذلك، ومحبَّتُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للشيء دليل على أنه عبادة يُتقرب إلى الله بها.

والآيات في هذه العبادة متعدِّدَة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) «المفردات» ص ٢٨٣.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣] الآية، وغيرهما من الآيات.

المسألة الثالثة: مراتب الخشية:

يُقال فيها كما قيل في عبادة الخوف.

○○○

أمَّا دليل الإنابةِ، فقال فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ الآية [الزمر: ٥٤]».

الشرح:

هذه العبادة التاسعة: الإنابة، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الإنابة:

الإنابة: الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة وإخلاص العمل. فهي قريبة من معنى التوبة، لكنها أخص.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا استقرت قدمُه - يعني العبد - في منزل التوبة؛ نزل بعده منزل الإنابة ..»[1].

فهذا يُشعِر أن الإنابة منزلة أرفع وأخص من التوبة.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٢).

والإنابة فيها زيادة معنى، وهو لزوم الطاعة، فالمنيب تائب ملازم للطاعة.

والإنابة نوعان:

الأول: إنابة لربوبيَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: وهي إنابة المخلوقات كلِّها. يشترك فيها المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، قال الله - تعالى -: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ**﴾ [الروم: ٣٣].

الثاني: إنابة لإلهيَّته: إنابة عبوديَّة ومحبَّة، وهي إنابة أوليائه.

المسألة الثانية: دليل الإنابة:

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، ففي الآية أمرٌ بالإنابة إليه، وأمر الله بالشيء يدل على محبته له، ومحبَّتُه تدل على أن ذلك الشيء عبادة، ولا يجوز صرفها لغيره - جل وعلا -.

ومما يدل - أيضا - على عدم جواز صرفها لغير الله: قولُه - تعالى - عن شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ [هود: ٨٨]، فهنا قدم الجار والمجرور، وتقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر، يعني إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنيب لا إلى غيره.

○○○

وأما دليل الاستعانة، فقال فيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وَفِي الْحَدِيثِ: (... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ)».

الشرح:

هذه العبادة العاشرة: الاستعانة، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الاستعانة:

الاستعانة معناها: طلب العون، وهي من دعاء المسألة؛ لأنها طلب وسؤال، فالعلاقة بينها وبين الدعاء أنها من دعاء المسألة.

المسألة الثانية: دليل الاستعانة:

ذكر آية وحديثا: أما الآية فقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ووجه الدلالة: تقديم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحصر، يعني: نستعين بك لا بغيرك. وأما الحديث: ففي وصية النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[1].

المسألة الثالثة: أحوال الاستعانة:

الاستعانة لها أحوال:

---

(١) تقدم تخريجه.

الأولى: استعانة محرمة. ولها صور:

١- أن تكون شركا:

ومنه الاستعانة بالأموات أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون على مباشرته، كأن يطلب شخصٌ من الميت أن يُعينه على قضاء دَينه أو تفريج كربته أو شفاء مرضه أو نحو ذلك، فهذا من الشرك الأكبر.

٢- أن تكون محرمة لا تصل إلى الشرك:

بأن تكون الاستعانة على أمر محرم، كما لو استعان إنسانٌ بآخر على أن يشتري له خمرا أو نحو ذلك، فهذه استعانة محرمة.

الثانية: استعانة مكروهة:

وذلك إذا كانت الاستعانة على أمرٍ مكروه؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

الثالثة: استعانة مباحة:

وذلك إذا كانت الاستعانة على أمر مباح؛ فهذه جائزة للمستعين، مندوبة للمُعِين يُثاب عليها؛ لأنها من باب الإحسان وقضاء الحوائج، وهذا من أعمال الخير والبر.

الرابعة: استعانة مشروعة:

ويندرج فيها الواجب والمندوب، فقد تكون واجبة وقد تكون مندوبة، وأعلى صورها: الاستعانة بالله، بأن يطلب العبدُ العونَ والمددَ والتوفيق والتسديد مع كمال الذل والانقياد والخضوع، يطلب ذلك من ربه ويفوض أمره إليه ويعتقد أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حَسْبُه وكافيه، وبيده ملكوت كل شيء، وبيده تصريف الأمور، فهذه أعلى درجات الاستعانة، وهذه من أعظم العبادات.

ومن صور الاستعانة المشروعة: الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله؛ كالاستعانة بالصبر عند الشدائد، والاستعانة بالصلاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وأيضا في قوله ﷺ في الحديث: «**وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١).

ومن صور الاستعانة المشروعة: التعاون على الخير؛ كما قال الله – تعالى –: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، يعني ليُعن بعضكم بعضا على البر والتقوى، وكما في الحديث قوله ﷺ: «**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»(٢).

○○○

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر دليل الاستعاذة، فقال:

«وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]».

الشرح:

هذه العبادة الحادية عشر: الاستعاذة، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الاستعاذة:

الاستعاذة مأخوذة من الفِعل عاذ يَعُوذ عَوْذا وعِياذا ومَعاذا، أي: لاذ به ولجأ واعتصم، فالاستعاذة بمعنى اللجوء والاعتصام، و﴿أَعُوذُ﴾ يعني: ألتجئ وأعتصم بالله.

وهي نوع من أنواع الدعاء، والعلاقة بين الاستعاذة والدعاء أن بينهما عموما وخصوصا مطلقا، فكل استعاذة دعاء، وليس كل دعاء استعاذة؛ فالدعاء أعم والاستعاذة أخص؛ لأن الاستعاذة خاصة بدفع الضرر الواقع أو المتوقع.

فالضرر الواقع مثلُ ما جاء في الحديث: «**أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»(١)، وأما المتوقع كما في الدعاء المشهور: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ...**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٠٢)، من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالاستعاذة خاصة بدفع الضرر المرهوب؛ سواءً كان واقعا أو متوقعا، أما الدعاء فإنه أعم؛ يشمل طلب دفع الضرر والشدة، وحصول الخير والمنفعة.

المسألة الثانية: دليل الاستعاذة:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ففيهما أمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ بأن يستعيذ بربه ﴿رَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وهو الصبح، ورب الناس جميعا، وأمر الله بذلك يدل على محبته، ومحبته تدل على أنه عبادة من العبادات التي تُقرب إليه.

المسألة الثالثة: أنواع الاستعاذة:

تقع الاستعاذة على ثلاثة أنواع:

الأول: الاستعاذة المشروعة:

وهي الاستعاذة بالله - تعالى -، والتي تتضمن كمال اللجوء والذل والافتقار إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وما جاء من الاستعاذة بصفة من صفات الله كما جاء في قوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»(١)، وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(٢)، وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ باللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»(٣)،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٠٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٥٥٢٩)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وصححه الألباني، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

(٣) تقدم تخريجه قريبا.

وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ...**»[1]، وقوله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ...**»[2]، ونحوها؛ فهذا من باب التوسُّل بالصفة.

ثانيا: الاستعاذة الممنوعة:

ومن صُورِها: الاستعاذة بالأموات، بأن يلتجئ ويعتصم بالميت، ويسأله أن يُعيذه من الشر الواقع أو المتوقع.

وكذا الاستعاذة بالأحياء الغائبين، أو الحاضرين فيما لا يقدر عليه، فهذا من الشرك كما قال الله - عز وجل -: ﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ [الجن: ٦].

ثالثا: الاستعاذة الجائزة:

وهي الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر القادر، كما جاء في بعض الأحاديث لما ذَكَر النبي ﷺ الفتن قال: «**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ؛ فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٢٨) وفي مواضع أخرى، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧٠٨١) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الحديث أيضًا «أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ»[1].

هذا من حيث الأصل، أما إن ترتَّب عليها محذور فلها حكم آخر بحسب المقاصد في ذلك.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان دليل الاستغاثة، فقال:

«وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ الآية [الأنفال: ٩]».

الشرح:

هذه العبادة الثانية عشرة: الاستغاثة، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الاستغاثة:

الاستغاثة مصدر الفعل السداسي (استغاث)، والاسم: الغَوْث، ومعنى الاستغاثة: طلبُ الغوث، وهو: التَّخلِيص من الشِّدة والنِّقْمَة[2]، مثل الاستعانة: طلب العون.

فمعنى طلب الغَوث: طلب التخليص من الشدة التي وقع فيها المرء.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٨٩)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «تاج العروس» (٥/ ٣١٤).

والعلاقة بين الاستغاثة والدعاء يُقال فيها كما سبق في الاستعاذة؛ فالاستغاثة خاصة بكون المطلوب رفع الشدة الواقعة، وأما الدعاء فهو أعم؛ إذ يشمل رفع الشدة ودفعها، ويشمل - أيضا - طلبَ حصول ما فيه منفعة وخير؛ فالعلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص مطلق؛ فالدعاء أعم مطلقا، وكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

المسألة الثانية: دليل الاستغاثة:

- ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ...﴾ [الأنفال: ٩]، ووجه الدلالة أن الله - تعالى - ذكر عنهم هذا الفعل في مقام الثناء؛ حيث رتَّب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه الاستجابة لهم، وهذا يدل على محبته له، وإذا كان محبوبا له فهو عبادة.

المسألة الثالثة: أنواع الاستغاثة:

يقال فيها كما قيل في العبادة السابقة (الاستعاذة).

○○○

أمَّا عبادة الذبح، فقال فيها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]. وَمِنَ السُّنَّةِ: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»[(١)]».

الشرح:

هذه العبادة الثالثة عشر: الذبح، والكلام عليها في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الذبح:

الذبح هو: إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مخصوص.

المسألة الثانية: دليل الذبح:

ذكر الشيخ آية وحديثا: فالآية هي قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والشاهد قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾، أي: ذبحي لله وحده لا لغيره، فيكون معنى الآية: قل إن صلاتي ونسكي لله استحقاقا، ومحياي ومماتي لله مِلكا وتصرفا.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والحديث: «**لَعَنَ اللَّهُ منْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ**»[1]، واللَّعْن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، نسأل الله العافية.

المسألة الثالثة: أقسام الذبح:

الذبح قسمان:

الأول: أن يكون الذبح على وجه التقرب والتعبد. وهذا له صورتان:

١- أن يكون لله - تعالى -. وهذا من أعظم القُرَب، ومما يدل على منزلة هذه العبادة أن الله - تعالى - قرنها بالصلاة في موضعين من كتابه.

والذبح لله - تعالى - تعبدا؛ قد يكون:

واجبا: كهدي التمتع، والوفاء بالنذر.

وقد يكون مسنونا: كالأضحية والعقيقة على مذهب الجمهور.

٢- أن يكون لغير لله - تعالى -. وهذا شرك أكبر مخرج من الملة، ومن أمثلته: الذبح عند قبور الأولياء والصالحين تقربا إليهم؛ فهذا شرك ولو ذكر اسم الله عليه. أما لو ذبح لله عند القبر فهذا بدعة وليس شركا.

ومن الأمثلة: الذبح بأمر السحرة والدجالين للجن ونحوهم؛ لأجل تحقيق ما يراد منهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

الثاني: أن يكون الذبح لا على وجه التقرب والتعبد. وهذا له صور؛ منها:

١- الذبح لأجل الأكل. قال تعالى: ﴿**وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل : ٥]، وهذا مباح، وقد يثاب عليه إذا نوى النفقة على أهله.

٢- الذبح لإكرام الضيف. كما يقال: جاءني ضيف فذبحت له شاة.

وهذا مندوب؛ لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(١).

٣- الذبح للتجارة. كمن يذبح شياها أو بقرا أو إبلا ثم يبيع اللحم، بقصد الربح.

لكن يشترط في الصور السابقة ما يذكره الفقهاء في أحكام الذكاة.

فموضوع الذبح يتعلق به جانب اعتقادي وجانب فقهي.

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٠١٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وآخر العبادات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هو النذر، وقال فيه:

«وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]».

الشرح:

هذه العبادة الرابعة عشرة: النذر، والكلام عليها في مسألتين:

المسألة الأولى: معنى النذر:

النذر في الاصطلاح هو: إلزام مُكلَّفٍ مختارٍ نفسَه لله - تعالى - شيئا لا يلزمه بأصل الشرع[1].

أي: أن يُلزم المكلفُ نفسَه بشيء لا يلزمه بأصل الشرع لله - تعالى - بالقول، كأن يقول: لله عليَّ كذا وكذا. ونحو ذلك من العبارات التي تُفيد هذا المعنى.

المسألة الثانية: دليل النذر:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، ويُلاحَظ أن الآية أثنت على الموفِين بالنَّذر لا على الناذرين؛ فالوفاء بالنذر عبادة؛ لأن الله أثنى على ذلك، وثناؤه يدل على محبته لهذا الشيء، وهذا يدخل في ضابط العبادة، فالوفاء بالنذر من العبادات.

---

(١) «الإقناع» (٤/ ٣٥٧)، وهو لغة: الإيجاب، كما في «القاموس المحيط» ص ٤٨١، مادة «نذر».

أما النذر وأقسامه وتفاصيل أحكامه فهذه محلها كتب الفقه؛ حيث عقدوا لذلك بابا مستقِلًّا، والله أعلم.

○○○

المبحث الثاني: الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام، وبيان مراتبه:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ. وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ».

الشرح:

هذا هو الأصل الثاني من الأصول الثلاثة وهو: «مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ». **والإسلام قسمان:**

الأول: الإسلام الكوني:

ويراد به الاستسلام لحكم الله الكوني، وهذا عامٌّ لكل من في السموات والأرض، يشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يخرج أحد عما أراده الله.

ودليل ذلك قوله - عز وجل -: ﴿**وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٣]، وهذا لا يتعلق به ثواب ولا ثناء.

الثاني: الإسلام الشرعي: وهو الاستسلام لحكم الله الشرعي.

فيثبت هذا الإسلام لمن أطاع الله واتبع المرسلين، فمن اتبع موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فهو مسلم، ومن اتبع عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فهو مسلم، وهكذا. قال الله - عز وجل -: ﴿**أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقال سبحانه:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهذا الإسلام الشرعي نوعان:

١- **إسلام عام**: وهو الاستسلام لحكم الله الشرعي، وهذا لمن أطاع الله واتَّبَع المرسلين.

٢- **إسلام خاص**: وهو الدِّين الذي بُعث به محمد ﷺ، وهو ثلاث مراتب كما سيذكر المؤلف.

- **تعريف الإسلام:**

عرَّف الشيخ الإسلامَ بثلاث جمل:

الأولى: «الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ»: يعني الانقياد والإذعان لله - عز وجل - بتوحيده بأنواع التوحيد الثلاثة، وهذا هو الإسلام الشرعي، ولا تثبت قدم الإسلام إلا على قنطرة التسليم. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

الثانية: «وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ»: بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فالمسلم مُنقاد يسمع ويُطيع لله ورسوله. والنصوص في الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ كثيرة جدًّا.

الثالثة: «وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ»: لا يكفِي أن يلتزم بالتوحيد وينقاد بالطاعة، بل مع ذلك يتبرأ من الشرك، ويتبرأ من أهله لشركهم، قال الله – تعالى –: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مراتب دين الإسلام، فقال:

«وَهُوَ ثَلاثُ مَراتِبَ: الإِسْلامُ وَالإِيْمانُ والإِحْسانُ، وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَها أَرْكانُ».

الشرح:

الإسلام الذي جاء به نبينا محمد ﷺ، بالمعنى العام يندرج تحته «ثَلاثُ مَراتِبَ: الإِسْلامُ وَالإِيْمانُ والإِحْسانُ، وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَها أَرْكانُ»، ودلَّ على ذلك حديثُ جبريل الطويل، كما سيذْكُرُه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

○○○

ثم شرع بعد ذلك يذكر أركان كلِّ مرتبة من هذه المراتب الثلاث، فقال:

«فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهادَةُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقامُ الصَّلاةِ، وإِيْتاءُ الزَّكاةِ، وَصَوْمُ رَمَضانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرامِ».

الشرح:

ودليل ذلك حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(١).

○○○

ثم شرع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر أدلة هذه الأركان، فقال:

«فَدَلِيلُ الشَّهادَةِ: قَوْلُهُ تَعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨]».

الشرح:

هذه الآية استشهد الله فيها بنفسه، وبملائكته المُسبِّحة بقُدسِه، وبأهل العلم من جِنِّه وإنسِه؛ على أعظم مشهود وهو التوحيد (لا إله إلا هو).

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وهذا فيه فضل أهل العلم وعُلُوِّ مكانتهم عند الله؛ أن الله استشهد بهم على هذا الأمر العظيم.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَمَعْناها: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، «لَا إِلهَ» نافِيًا جَمِيْعَ ما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، «إِلَّا اللهُ» مُثْبِتًا العِبادَةَ للهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ فِي عِبادَتِهِ، كَما أَنَّهُ لا شَرِيْكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ».

الشرح:

هذا معنى كلمة التوحيد نفي وإثبات؛ نفي جميع المعبودات من دون الله، وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، فجميع ما يُعبد من دون الله فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

فـ «لا» نافية للجنس و «إلهَ» اسمها، وتقدير الخبر: حَقٌّ، أي: لا إله حقٌّ إلا الله، «لا إله» يعني: لا معبود، فيكون معناها: لا معبود حقٌّ أو لا معبود بحقٍّ إلا الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤]».

الشرح:

- هذا يُوضِّح ما سبق، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، هو: نبي الله وخليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أحد أُولي العزم الخمسة، وأفضل الرسل بعد نبينا ﷺ، وهو الذي نال مرتبة الخُلة، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ولم يَنَلْها أحدٌ من خلقه إلا هو ومحمدٌ ﷺ.

﴿لِأَبِيهِ﴾ آزَر، ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ عبَّاد الأصنام، ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذه الجملة تُقابل النفي في كلمة التوحيد «لا إله».

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ تقابل الإثبات في كلمة التوحيد «إلا الله».

وقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، يعني: خلقني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾، يعني: سيَدُلُّني على الحق، ويوفِّقُني لسلوكه واتِّباعه.

وجعل إبراهيمُ هذه الكلمة (كلمة التوحيد) التي فيها البراءة من المعبودات الباطلة وإثبات العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿جَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إليها ويجتنبون الشرك.

وكذلك الآية الأخرى، قولُه - عز وجل -: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الأمر والخطاب فيها للنبي ﷺ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، ما هي هذه الكلمة؟ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، هذا هو التوحيد (لا إله إلا الله)؛ فالمعبودات باطلة والشرك به باطل، والحق هو إفراده بالعبادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلا رَبَّ ولا معبود إلا الله، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾، يعني: أعرضوا واستكبروا واستنكفوا عن هذه الكلمة وهذا التوحيد فلا يضركم هذا شيئا ولا يُثْنِيَنَّكم، ﴿فَقُولُوا۟﴾ أعلنوا واصدعوا بالحق ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، يعني: أننا ثابتون على هذا الإسلام الشرعي الصحيح الذي هو توحيد الله - تعالى -، ونفي الشرك به.

هذا هو معنى الكلمة العظيمة كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان دليلِ الشق الثاني من الشهادة، فقال:

«وَدِلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]».

الشرح:

الشهادتان رُكن واحد؛ فهذا هو الشق الثاني للرُّكن الأول من أركان الإسلام، فقوله - عز وجل -: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني: منكم، تعرفونه، وتعرِفُون أصلَه ونسَبَه فيكم، فليس غريبًا عنكم، وإنما هو من أنفُسِكُم.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني: يشُق عليه ما يشُق عليكم؛ فما تجدونه من المشقة والمكروهات والشدائد يشُق عليه ذلك.

وأيضًا ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، حريص على إيمانكم وإسلامكم وصلاح أموركم، وهو ﷺ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وأما بمخالفيه من الكفار والمنافقين فكما قال الله - عز وجل -: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان معنى ولوازم الشق الثاني من الشهادة، فقال:

«وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ».

الشرح:

شهادة أنَّ محمدا رسولُ الله، معناها: الإيمان بالقلب والإقرار باللسان أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي مرسَلٌ من عند رَبِّه، وأنه مبعوث بهذا الدين، أرسله الله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، أرسله إلى الإنس والجن جميعا.

وأنزل الله عليه كتابا مُبارَكا، وأوجب على الناس اتباعه وطاعته، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

ومقتضى هذه الشهادة: «طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ».

«طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ»: بأن تُمتَثَل أوامرُه، وتُجتنب نواهيه.

«وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ»؛ لأنه الصادق المصدوق ﷺ، فكل ما أخبر به وثبت عنه، فيجب تصديقه في ذلك.

«وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ»، فقد سدَّ اللهُ - عز وجل - كلَّ طريق إليه إلا من طريق رسوله ﷺ، فلا يُقبَل العملُ إلَّا ما كان خالصا لله موافقا لسنة رسول الله ﷺ.

ومع ذلك فهو عبدٌ لا يُعبد، ورسولٌ لا يَكذِب ولا يُكذب، وهو رسول رَبِّ العالمين، ولا يجوز أن يُغَضَّ من مكانته، كما لا يجوز - أيضا - أن يُرفع فوق قدرِه، فهو بَشَرٌ وعَبْدٌ لله لا يملك نفعا ولا ضرًّا إلا ما أقدره الله عليه، فلا يجوز أن يُعبَد أو يُصْرَف له أي نوع من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿**قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فلا يجوز دعاء النبي ﷺ أو صَرفُ شيء من أنواع العبادة له، بل هو واسطة بلَّغ دِيْنَ اللهِ إلى عباد الله.

- **ويدخل في عدم تحقيق مقتضى الشهادة بالرسالة عدة صور؛ منها:**

أولا: الإعراض عما جاء به النبي ﷺ، فلا يقبَلُه إما لعدَمِ تصديق الأخبار، أو عدم طاعة الأوامر والنواهي.

ثانيا: أن يشرع في دين الله ما ليس منه، وما لم يأت به النبي ﷺ. فالدِّين قد كمل، والنعمة قد تمت، قال تعالى: ﴿**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا**﴾ [المائدة: ٣].

ثالثا: أن يُقدِّم قولَ غيرِه عليه. والواجب أن تُقدَّم سُنَّةُ النبي ﷺ، ولا يقدِّم عليها شيئا، لا رأيًا فقهيا ولا بحثا جدَلِيًّا، ولا ذَوقا ولا نظرا ولا حجة عقلية ولا كلامية ولا غير ذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، واللهُ - تعالى - يقول: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشِّرك. لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلِك»[1].

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: ٥]».

الشرح:

الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله؛ فالدليل على الأمر بالصلاة والزكاة وأنهما من الدِّين، هذه الآية.

---

(١) «الصارم المسلول» ص ٥٦.

- وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: هذا فيه العبادة مع شرطها، وهو الإخلاص، فمن أشرك مع الله غيرَه فعبادتُه غير مقبولة، ﴿حُنَفَآءَ﴾: يعني مائلين عن الشرك إلى التوحيد والإيمان، ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: هذا من باب التأكيد، ومن باب عطف الخاص على العام؛ لأن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من العبادة.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما سبق من: عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ﴿ذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، يعني: دين الملة القيمة، دين الاستقامة وهو الدين الإسلامي، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهذا فيه إشارة إلى أن هاتين العبادتين من الدين، وقد أُمر بهما.

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ودَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]».

الشرح:

هذا الرُّكن الرابع من أركان الإسلام: الصيام، وهو الإمساك بنية عن المفطِّرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والدليل على أنه من الدِّين، وعلى وجوبه: هذه الآية.

- وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، أي: فُرِض ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وهذا يدل على أهمية الصوم ومكانته؛ فإنه كان مكتوبا مفروضا على من قبلَنا، وفي هذا - أيضا - تخفيف لهذه الأُمَّة حيث لم تُكلَّف بهذه العبادة لوحدها، وإنما شاركها في ذلك الأمم السابقة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: فيه إشارة إلى الحكمة من الصوم، وهي حصول التقوى، والتقوى أصلُها في القلب ويظهر أثرُها على بقية الجوارح، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(١).

فالصوم صوم الجوارح: أن تصوم العين عن النظر الحرام، واللسان عن الكلام المحرم، والأُذن عن السماع المحرم، وهكذا بقية الأعضاء والجوارح.

○○○

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]».

الشرح:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو: قصدُ مكَّةَ في زمن مخصوص لعمل مخصوص.

هذه الآية في سورة «آل عمران» نزلت في سياق قدوم وفد نصارى نجران، وقدوم الوفود كان في السنة التاسعة، ففَرضُ الحج في السنة التاسعة، وحجَّ النبيُّ ﷺ في السنة العاشرة.

والآية دليل على فرضية الحج، وأنه أحد أركان الإسلام، لكن هذا مُقيَّدٌ بالاستطاعة، فمن لم يستطع فلا شيء عليه، والله أعلم.

○○○

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن المرتبة الثانية من مراتب الدِّين، فقال:

«الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ».

الشرح:

هذه المرتبة الثانية من مراتب الدين الإسلامي: وهي الإيمان، والمرتبة الأولى: الإسلام، والعلاقة بين الإيمان والإسلام - كما قال المحققون -: أنَّهُما

«إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا»، بمعنى: إذا اجتمع الإسلام والإيمان في سياقٍ واحد فيفترق المعنى، فينصرف الإسلام إلى الأعمال الظاهرة، والإيمان إلى الأعمال الباطنة.

و«إذا افترقا»، أي: يكون في السياق أحدهما دون الآخر، أي: الإسلام فقط أو الإيمان فقط، صار الإسلام يشمل الجميع: الأمور الظاهرة والباطنة، والإيمان يشمل الجميع - أيضا -. هذه العلاقة بين المرتبتين: الإسلام والإيمان[1].

والإيمان في اللغة: التصديق[2]. وفي الاصطلاح: قولٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح، واعتقادٌ بالقلب، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إلهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ».

الشرح:

البِضْع: اسمٌ لمفرد مبهم، من الثلاثة إلى التسعة.

---

(١) ينظر للاستزادة: «جامع العلوم والحكم»، شرح الحديث الثاني.

(٢) قال ابن منظور في «لسان العرب» (٢٣/١٣): «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق».

الشُّعبة: هي القطعة من الشيء.

ذكر النبي ﷺ في الحديث ثلاثة أمثلة، المثال الأول على القول: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، والمثال الثاني على الفعل: «إِمَاطَةُ الأَذَى»، والمثال الثالث على أعمال القلب، وهو: «الْحَيَاءُ». فهذه الأمثلة الثلاثة إشارة إلى أن الإيمان يتضمَّن قول اللسان وعمل الجوارح واعتقاد القلب.

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان أركان الإيمان، فقال:

«وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ؛ كَمَا فِي الحَدِيْثِ: «**أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ**﴾ [البقرة: ١٧٧]. وَدَلِيْلُ القَدَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]».

الشرح:

الركن الأول: الإيمان بالله. ويتضمن أربعة أمور:

أولا: الإيمان بوجوده.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثانيا: الإيمان بربوبيته.

ثالثا: الإيمان بألوهيته.

رابعا: الإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان بالله أفضل الأعمال، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئل: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

الملائكة عالم غيبيٌّ خلقَهم الله من نُور، ﴿**يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

والإيمان بهم يتضمن:

أولا: الإيمان بأسمائهم، ممن علِمنا أسماءَهم.

ثانيا: أنْ نُؤمن بما علِمنا من أعمالهم؛ فجبريل - مثلا - مُوَكَّل بالوحي ينزل به من عند الله إلى رسله، وميكائيل موكل بالقطر - يعني المطر- والنبات، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصُّور، وغيرُهم؛ مثلُ: ملَك الموت، والملائكة

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٦ و ١٥١٩)، ومسلم (٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الموكَّلِين بحفظ أعمال بني آدم، والملَكَين المُوَكَّلَين بسؤال الميِّت إذا وُضع في قبره، وغير ذلك مما ثبتت به النصوص.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب:

المراد الكتب التي أنزلها الله - عز وجل - على رُسُلِه، وذلك بأن نؤمن بما علِمنا اسمَه منها.

والذي علِمْنا اسمَه من هذه الكتب ستة: القرآن المنزل على محمد ﷺ، والثاني: التوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ، والثالث: الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ﷺ، وهو مُصَدِّق للتوراة ومُتَمِّم لها، والرابع: الزَّبُور الذي أتاه الله داود ﷺ، والخامس والسادس: صُحُف إبراهيم وصحف موسى.

وهذه الكتب السابقة كلها منسوخة بالقرآن، قال الله - تعالى -: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]، فلا يُعمَل بها شرعا.

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

الرُّسُل جمع رسول، وقد سبق الكلام على الفَرْق بين النَّبِيِّ والرسول، وعدد الأنبياء كما في حديث أبي ذر: «**مِئَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا؛ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٧١)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٧٣٧). وانظر: «الصحيحة» (٢٦٦٨)، وضعَّفه الأرناؤوط وآخرون.

والإيمان بالرُّسُل معناه: أن نؤمن بأسماء من علِمْنا اسمَه منهم؛ وأن نؤمن بكُلِّ خبر أخبروا به، وأن نؤمن بأنهم صادقون بما بلغوه من الرسالة.

ومن لم يُعرَفْ اسمُه فنؤمن به إجمالا، فليس كل الرسل نعرفهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾ [غافر: ٧٨]، وقد ذُكِرَت جملة من قَصَص الأنبياء والمرسلين في كتاب الله – عز وجل –.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر يتضمَّن: كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت إلى القرار في الجنة أو النار؛ فمن مات فقد قامت قيامته.

فيدخُل في ذلك: الإيمان بفتنة القبر، وعذاب القبر أو نعيمه، والبعث بعد الموت، والحشر، والحساب، وما يكون مِن مشاهد اليوم الآخر من الحوض والميزان والصراط وتطاير الصحف وغير ذلك من أمور مذكورة في الكتاب والسُنَّة، فنؤمن بهذا كله مما صح نقلُه، إلى أن ينتهي بالناس القرار في المثوى الأخير: الجنة أو النار.

الركن السادس: الإيمان بالقدر:

وهو يتضمَّن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بعلم الله المُحيطِ بكُلِّ شيء جملة وتفصيلا.

الثاني: الإيمان بأنَّ الله – تعالى – كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء إلى يوم القيامة.

الثالث: الإيمان بأن كل ما حدث في الكون فهو بمشيئة الله، فلا يخرج شيء عن مشيئته أبدا.

الرابع: الخلق، ومعناه أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خالق كل شيء.

○○○

ثم انتقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى المرتبة الثالثة، فقال:

«الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ. وله رُكْنٌ وَاحِدٌ كَما فِي الحَدِيْثِ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل:١٢٨]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾ [الشعراء: ٢١٧ – ٢٢٠]، وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾[يونس: ٦١]».

الشرح:

الإحسان: المرتبة الثالثة من مراتب الدِّين الإسلامي، كما ورد في حديث جبريل الطويل الذي سيسوقه المؤلف بعد قليل.

وحاصل هذه المرتبة راجع إلى إتقان العبادات، ومراعاة حقوق الله فيها، ومراقبتِه واستحضار عظمته وجلاله؛ فالعبد الذي يستحضر قربَ الله منه، يعبدُ الله كأنه يراه، وذلك يُثمر الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، كما جاء في بعض الروايات: «**أَنْ تَخْشَى اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»(١)، ويوجب - أيضا - النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها.

- وقولُه: «**فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»: قيل: إن هذه الجملة تعليل للأولى.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شقَّ عليه أن يعبد الله كأنه يراه؛ فليعبد الله على أن الله يراه ويطَّلِع عليه، فليستحِ من نظره إليه. كما قال بعض السلف: «اتق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك». وقال بعضهم: «خَفِ الله على قدر قُدرته عليك، واستحِ من الله على قدر قُربِه منك»(٢).

فهاتان مرتبتان:

مرتبة الطلب: أن تعبد الله كأنك تراه.

ومرتبة الهرب: أن تعبد الله وهو يراك فتحذر. قال تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) أخرجها مسلم في صحيحه (١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (١/١٢٩).

والمحسن جزاؤه، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والزِّيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، كما جاء ذلك عن النبي ﷺ(١).

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ. فَقَالَ:(**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلٰهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا**)، قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ؛ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: (**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**). قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: (**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**). قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: (**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: (**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا،**

(١) ينظر: صحيح مسلم (١٨١).

وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ). قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: (يَا عُمَرُ، أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم)».

الشرح:

في الحديث أنَّ جبريل سأل النبيَ ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم سأله عن الساعة وأشراطها، وبعد ذلك قال النبي ﷺ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم»[1].

فهذا يدل على أن الدِّين يتكوَّن من هذه الأمور الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وهذا بيان من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للأصل الثاني من هذه الأصول الثلاثة (معرفة الدِّين): أنْ يعرف العبد دينه الإسلام: ما معناه؟، وما مراتبه؟، وما أركان كل مرتبة؟.

نسأل الله الفقه في الدين، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح .. آمين.

○○○

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨).

المبحث الثالث: الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَهُوَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ».

الشرح:

شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأصل الثالث، وهو معرفة النبي ﷺ. والكلام على هذا الأصل في مسائل:

المسألة الأولى: نسب النبي ﷺ:

- قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ».

وفي الحديث عن واثِلَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٦).

فهو ﷺ خيار من خيار، وهو أفضل الأمة نسبًا.

وفي قصة هرقل مع أبي سفيان أنَّه سأله، فقال: «كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ». فقال هرقل بعد ذلك: «سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ؛ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا»(١).

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً: مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نبيًا ورسولا».

الشرح:

المسألة الثانية: عمره ﷺ:

عاش النبي ﷺ ثلاثًا وستين سنة، «مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ»، ثم بُعث وجاءه الوحي وهو في غار حراء وعمره أربعون سنة، فمكث في مكة ثلاثَ عشرةَ سنة يدعو إلى التوحيد، ثم هاجر ومكث في المدينة عشر سنوات ﷺ، فيكون عاش ﷺ بعد البعثة ثلاثا وعشرين سنة.

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«نُبِّيءَ بِـ﴿ٱقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بِـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾».

الشرح:

المسألة الثالثة: بم كانت نبوته ورسالته؟

نُبِّئَ ﷺ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، لمَّا جاءه جبريلُ، كما في الخبرِ المشهور: «**قَالَ: اقْرَأْ. قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» فكرَّرَها ثلاثًا، «قالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]»[1]، فهنا نُبِّئ بهذه الكلمات، وهذا أول ما نزل من القرآن.

ثم أُرسل، أي: أُمر بالبلاغ والدعوة بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، أي: بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٣].

وقد سبق الكلام على النبي والرسول والفرق بينهما.

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى المَدِيْنَةِ».

الشرح:

المسألة الرابعة: بلده ومُهاجَره:

النبي ﷺ من أهل مكة: ولادتُه، ونشأته، وزواجه الأول وهو ابن خمس وعشرين سنة من خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، كل هذا كان في مكة.

ثم هاجر إلى المدينة وعمره ثلاث وخمسون سنة، وانتقل إليها واستوطنها، وأقام دولة الإسلام كما سيأتي، وعاش فيها عشر سنوات حتى توفاه الله وهو في المدينة.

فحياته بين مكة والمدينة، غالبُها في مكَّةَ، والعشر سنوات الأخيرة من حياته كانت في المدينة.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]. وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ».

الشرح:

المسألة الخامسة: بم بُعث ﷺ؟ وما الدليل على ذلك؟

بُعِث ﷺ بالتوحيد، والتحذير من الشرك، ومكث عشر سنوات في مكة يدعو إلى ذلك. وسبق الحديثُ عن التوحيد والشرك في المبحث الثالث من الفصل الأول.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ».

الشرح:

المسألة السادسة: المعراج:

الإسراء والمعراج من أحداث السيرة النبوية البارزة، فأُسري بجسده الشريف من مكة إلى بيت المقدس ثم عُرِج به من هناك إلى السماء، والعروج أصله الصعود، كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، يعني تَصْعَد.

وقد جاءت السُنَّة الصحيحة عن النبي ﷺ في تفصيل قصة الإسراء والمعراج، وكيف تدرَّج في السموات السبع، ومن لقي، وماذا حصل له، كل هذا مفصل في كتب السُنة والسيرة[1].

○○○

(١) ينظر: البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢). وينظر: «زاد المعاد» (٣/ ٣٠).

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ».

الشرح:

فرض الصلوات الخمس كان بعد التدَرُّج؛ فأول ما فُرِضت الصلاة خمسين، ثم خفَّفها الله حتى وصلت إلى خمس في العدد وخمسين في الأجر.

وصلَّى النبي ﷺ في مكَّةَ ثلاث سنين، وكانت الصلاة الرباعية ركعتين، كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاَةَ حِينَ فَرَضَهَا، رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلاَةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلاَةِ الحَضَرِ**»[1].

وذكر بعض أهل العلم أن النبي ﷺ قبل المعراج وفرض الصلوات الخمس؛ كان يصلِّي صلاتين في اليوم والليلة، ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي[2].

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥).

(٢) ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٣٠٤).

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَالْهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ».

الشرح:

المسألة السابعة: الهجرة:

أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة بعد أن اشتد أذى المشركين، ويسر الله المناصرين في المدينة، فخرج جماعة من أصحابه، وسبقوه إليها.

والهجرة في اللُّغة هي: التَّرك[1].

وفي الاصطلاح عرَّفها الشيخ بأنَّها: «الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ».

وهذا المعنى هو المشهور للهجرة، وهناك هجرة أخرى، وهي ترك المعاصي والذنوب، كما قال ﷺ: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**»[2].

○○○

(١) «مقاييس اللغة» (٦/ ٣٤)، مادة (هجر).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ».

الشرح:

تجب الهجرة على المسلم؛ إذا كان لا يستطيع أن يُظهر شعائر دينه، وهو قادر على الهجرة، فيجب عليه أن يُهاجر إلى بلدٍ يُظهر فيه شعائر الإسلام. وفي أحكام الهجرة تفصيلٌ محله كتب الفقه.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان دليل الهجرة، فقال:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]».

قَالَ البغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ(١).

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: (**لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**)(٢)».

الشرح:

تضمنت الآية الأُولى وعيدا شديدا بجهنم لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، وأن الملائكة التي تقبض روحه تُوبِّخُه بهذا التوبيخ العظيم، وهذا يدل على وجوبها.

وأما قوله ﷺ: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ**»(٣)، فالمراد: لا هجرة من مكة بعد فتحها؛ لأنها صارت دار إسلام، أما الهجرة من غير مكة فهذه باقية إلى قيام الساعة.

ooo

(١) ينظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٧٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، و الدارمي (٢٥٥٥)، من حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ؛ مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ».

الشرح:

يعني أن النبي ﷺ كان في مكة يُثبِّت قواعد التوحيد ويُرسِّخ العقيدة الإسلامية، وفُرِضت عليه الصلاة بعد عشر سنوات، وكانت ركعتين في الحضَر، فلما هاجر وقوِيَتْ شوكة الإسلام والمسلمين، وتكوَّنت دولةُ الإسلام وتوطدت أركانها؛ جاءت الشرائع الظاهرة؛ كالصوم والحج والجهاد والأذان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلاة الجماعة، وغير ذلك من شرائع الإسلام.

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ - صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ - وَدِينُهُ بَاقٍ. وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ».

الشرح:

كانت وفاته ﷺ في شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة.

ودينُه ﷺ باقٍ إلى قيام الساعة، «وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ»، هكذا كان النبي ﷺ، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، كان ناصحًا مُعَلِّمًا مُحِبًّا للخير، وفي الحديث أنَّه ﷺ قال: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، أُعَلِّمُكُمْ**»(١)، وكان ﷺ يُعلِّم أصحابه ما يحتاجونه في أمور دينهم.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ: الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ».

الشرح:

أصل الخير وأعظم ما أمر الله به: توحيدُه، ويدخُل في ذلك أمور الطاعات والعبادات الأخرى على اختلاف مراتبها وأنواعها وأجناسها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصلُ ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد»(٢).

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٨)، وابن ماجه (٣١٣)، وأحمد (٧٣٦٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٤٦).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٩).

وقال - أيضا -: «إنَّ كل آية في القرآن فهي متضمِّنَةٌ للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه»(١).

وأعظم الشر الذي نهى الله عنه، وحذَّر منه نبيُّه ﷺ: الشرك - كما سبق -، ويتبع ذلك المنهيات على اختلاف درجاتها ومراتبها.

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً. وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]»

الشرح:

من خصائصه ﷺ:

أولا: أنه بُعِث إلى الناس كافة كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي .. - وذكر منها: - وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»(٢).

ثانيا: أنَّ الله افترض طاعته على جميع الثقلين.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤١٧).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

والاستدلال بالآية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنه ﷺ مبعوث إلى الثقلين: الجن والإنس، ليس بظاهر؛ باعتبار أن كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هل يدخل فيها الجن أم أنها تنصرف إلى البشر من بني آدم؟ وسبق الكلام على ذلك.

لكن من الأدلة على عموم بعثته ﷺ إلى الجن والإنس قوله - عز وجل -: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]، الآيات، وقوله - عز وجل -: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، الآيات.

فهذا يدل على أنه ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس.

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]».

الشرح:

هذا الدين قد كَمُل ولله الحمد، والنعمة قد تمت، وما ترك النبي ﷺ خيرا إلا ودل الأمة عليه، ولا شرا إلا حذرها منه.

وجاء عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا»(١).

وأورَدَ بعض المشركين على سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالوا: لقد علمكم نبيُّكم كلَّ شيء حتى الخراءة - يعني آداب قضاء الحاجة -، فقال سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَجَلْ؛ **«لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»**(٢).

فكل هذا يُشير إلى عموم الدين وكماله وتمامه، فلا مجال فيه للزيادة والاستدراك أو التعقب.

○○○

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٢١٣٦١)، والطبراني في «الكبير» (١٦٤٧)، وحسنه محققو المسند.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٢).

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]».

الشرح:

قضى الله - عز وجل - بالموت على جميع خلقه؛ لهذه الآية وآيات أخرى، كما قال الله - عز وجل -: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا، وجمعنا به في جنات الخلود، وتحت لوائه المعقود، وسقانا من حوضه المورود؛ إن ربي رحيم ودود.

* * *

الفصل الثالث: الخاتمة

وفيها ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البعث بعد الموت:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨]».

الشرح:

هذا أصل من أصول عقيدة المسلم: الإيمان بالبعث بعد الموت، ومعنى البعث: عودة الأرواح إلى الأجساد بعد النفخة الأخيرة.

وذكر الشيخ دليلين على هذا الأمر:

الأول: قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾، يعني: من الأرض خلقناكم باعتبار أبيكم آدم فإنه خُلق من تراب، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، يعني: الدفن؛ فالميت إذا مات يُدفن في الأرض، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، وهذا هو

البعث، يُبعث الناس من قبورهم من الأرض إلى يوم القيامة ويُحشرون يُساقون إلى أرض المحشر.

الثاني: قولُه - عز وجل -: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾، والمعنى كالآية السابقة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ بالموت، ثم ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ﴾ منها بالبعث.

وفي الحديث قال ﷺ: «**فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ**»(١).

فالبعث ثابت بالنصوص القطعية من الكتاب والسنة، وبعد البعث يُحشر الناس إلى أرض المحشر، ثم يكون القيام الطويل، ثم الشفاعة الكبرى، ثم يجيء الله - تعالى - للفصل والقضاء بين الناس، ثم تتطاير الصحف، ثم الحساب، ثم الميزان، ثم الصراط، ثم الجنة أو النار.

○○○

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]».

الشرح:

ومما يدل على الحساب - أيضا - حديثُ أبي بَرْزَةَ الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ**»(١).

والحساب نوعان:

النوع الأول: العرض والتقرير، يعني يقال له: فعلت كذا وكذا في يوم كذا وكذا. فيُقِرُّ ويقول: نعم. فيقول الله - تعالى -: «**سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»(٢)، وفي هذا جاء قولُه تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [الانشقاق: ٧- ٨].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

النوع الثاني: الحساب العسير والمناقشة، كما في الحديث: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»(١).

وبهذا الجمع ينزاح الإشكال الذي أوردته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**» فقَالَتْ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [الانشقاق: ٨]؟! قَالَتْ: فَقَالَ ﷺ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ**»(٢).

وثبت في الصحيحين: أنَّ سبعين ألفا من هذه الأمة يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب(٣)، وفي بعض الروايات «**مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا**»(٤).

والدليل على الحساب، قوله تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى**﴾ [النجم: ٣١]، وقوله سبحانه: ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٦٥٣٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) **ينظر**: صحيح البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٦٦)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وأول من يُحاسب من الأمم أمة محمد ﷺ، مع أنها آخر الأمم إلا أنها أول الأمم في الحساب.

وأول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت رُد عليه سائر عمله.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]».

الشرح:

حكم من كذَّب بالبعث أنه كافر خارج من الملة؛ لهذا الدليل، ولقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩- ٣٠].

وفي الحديث القدسي يقول الله - عز وجل -: «**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ**»(١).

والأدلة على إثبات البعث كثيرة؛ منها الأدلة النقلية وغيرها، وقد أفاض العلماء وأطالوا بتقريرها، والله أعلم.

○○○

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثاني: إرسال الرسل:

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]».

الشرح:

الإيمان بالرُّسُل من أركان الإيمان التي سبقت في الأصل الثاني، والله - عز وجل - قد أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، يبشرون من أطاعهم بالجنة، وينذِرُون من عصاهم بالنار.

ودعوة الرسل واحدة مِن أوَّلهم إلى آخرهم، كلُّهم يقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، كلهم يدعوا إلى (لا إله إلا الله)، إلى توحيد العبادة، إلى إفراد الله بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقال ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)؛ فهم يجتمعون في هذا الأصل الأصيل.

وإرسال الرسل له حكمة مذكورة في الآية وهي قطع الحُجة، قال: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥]، يعني بعد إرسال الرسل لا يكون هناك حجة لأحد على الله - عز وجل -؛ فلا يُقال: ما بلغني، ما علمت، ما أتاني، ما أخبرني أحد ... بل جاءك وأخبرك وأنذرك وعلمك، فانقطعت الحجة، وهذا من أعظم الحِكَم في إرسال الرسل، فهم الواسطة بين الله -عز وجل- وبين خلقه.

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ**﴾ [النساء: ١٦٣]».

الشرح:

أول هؤلاء الرسل نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أما الأنبياء فأولهم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

«وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ**﴾ [النساء: ١٦٣]».

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٥).

وثبت في الصحيح في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «**فَيَقُولُون: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ**»(١).

فنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أول الرسل، وهو أحد الخمسة أولي العزم. وآخرهم محمد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

○○○

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا، مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]».

الشرح:

للحكمة السابقة، «والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا**﴾ [النحل: ٣٦]»، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٤٧١٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وسبق الكلام على أن دعوة الأنبياء في الأصل واحدة، وإن اختلفت في التفاصيل والشرائع لكنهم مشتركون في هذا الأصل الأصيل، والله أعلم.

○○○

المبحث الثالث: الطاغوت بيانه وحكمه:

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ».

الشرح:

هذه الجملة وما بعدها في بيان معنى الطاغوت. والكلام عليه في مسائل:

المسألة الأولى: موارد الكلمة في القرآن الكريم:

وردت هذه الكلمة في القرآن في سبعة مواضع:

وردت في «سورة البقرة» في موضعين: في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله في الآية بعدها: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ...﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وفي «سورة النساء» في موضعين أيضا: في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي «سورة المائدة» قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وفي «سورة النحل» قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي «سورة الزمر» قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾[الزمر: ١٧].

المسألة الثانية: معنى هذه الكلمة:

الطاغوت: مشتق من الطغيان، ويُجمع على طواغيت، والطغيان: مجاوزة الحد، والارتفاع. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، يعني لما ارتفع الماء وزاد وتجاوز حدَّه المعتاد حملناكم في السفينة.

وأما التعريف الاصطلاحي: فنقل الشيخ عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه عرَّفه فقال: «الطَّاغُوتُ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ»[1].

(١) «أعلام الموقعين» (١/ ٤٠).

- وقوله: «تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ»:

المُراد غير الصالحين، أما مَن عُبد وهو غير راض، أو اتُّبِع اتباعًا يُخالف الشريعة وهو غير راض؛ فهذا لا يدخل.

فالمعبود: كمن دعا إلى عبادة نفسه، أو عُبِد برضاه.

والمتبوع: كعلماء السوء الذين يدعون الناس إلى الباطل وإلى مخالفة الدين؛ فيتبعونهم ويضلونهم.

والمطاع: مثل الولاة الذين يدعون الناس إلى مخالفة الدين والخروج عنه.

○○○

ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللهُ -، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ».

الشرح:

المسألة الثالثة: أشهر الطواغيت:

ذكر الشيخ أن رؤوس الطواغيت خمسة:

الأول: إبليس. وهو أبو الجن، الشيطان الرجيم، الذي طرده الله وأبعده إلى يوم الدين، فهذا هو رأس الطواغيت؛ لأنه أبى واستكبر وكفر وسعى في إغواء الناس وإضلالهم.

الثاني: من عُبِد من دون الله وهو راضٍ. فهذا من رؤوس الطواغيت.

الثالث: من دعا الناس إلى عبادة نفسه. يعني ولو لم يُعبد، فهذا طاغوت قد طغى وتجاوز حده، سواءً عبده الناس أو لم يعبدوه.

الرابع: من ادَّعى شيئا من علم الغيب.

الغيب: ما غاب عن الإنسان، ويُقابله الشهادة، والله - تعالى - هو عالم الغيب والشهادة. فمن ادَّعى شيئا من عِلم الغيب فقد نازع الله في ربوبيته، ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا**﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

الخامس: من حكم بغير ما أنزل الله.

وإفراد الله بالحاكمية داخل في توحيد الربوبية؛ لأن الله - عز وجل - هو الحَكَم وله الحُكم.

والحُكم بغير ما أنزل الله تجاوزٌ للحد، قال الله - تعالى -: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، فالمتبوعون سماهم الله أربابًا؛ لأنهم شرَّعوا في دين الله ما لم يأذن به، واتِّباعهم عبادة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾.

والحكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل، ولاشك أنه من أعظم المخالفات أن يحكم الحاكم في قضية بغير ما أنزل الله وهو عالم مختار، فهذا من أشنع وأعظم الأمور، وفيه تفصيل قد يصل في بعض أحواله إلى الكفر، وقد يكون ظلما، وقد يكون فسقا.

قال الله - تعالى -: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]».

الشرح:

يعني أن الدين - ولله الحمد - واضح وظاهر، فلا أحد يُكرَه على الدخول في الدين، ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ تبينت الأمور، ﴿تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾، والهدى من الضلال، والصادق من الكاذب، والحق من الباطل.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ وهي الإسلام وكلمة التوحيد.

- وقوله: ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ هنا زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فـ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ أقوى من مسك أو تمسك، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

○○○

وبعد هذا البيان السابق، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إِلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ)».

الشرح:

ختم الشيخ هذا المتن المختصر بالإشارة إلى أن رأس هذا الأمر الذي جاء به النبي ﷺ هو الإسلام.

ورأس الأمر هو الشيء المُقَدَّم، وهو الإسلام، وقد سبق بيان معنى الإسلام في الفصل الثاني.

- وقولُه ﷺ: «**وَعَمُودُهُ: الصَّلاةُ**»:

العمود: هو الشيء الذي يقوم عليه البناء؛ كالخيمة تقوم على عمود، فالعمود الذي يقوم عليه الدين: الصلاة، ولهذا قال ﷺ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(١)، وقال عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**لَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ**»(٢).

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤١٤٣).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (١١٧)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥٧٨)، وأحمد في الزهد (٦٥٦)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٠٩).

- وقولُه ﷺ: «وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»:

سنام البعير: أعلاه، والذِّروة: أعلاه، يعني أعلى ما في هذا الأمر هو الجهاد في سبيل الله؛ لأن الجهاد به تكون كلمة الله هي العليا، وبه ينتشر الدين، وبه تُحمى معالمه وشرائعه، فهو ذروة سنامه، وقد ورد فيه من الفضل العظيم الشيء الكثير في نصوص الكتاب والسنة.

○○○

ثم ختم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة العظيمة بقوله:

«وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ».

الشرح:

وبهذا ختم الشيخ هذه الرسالة المباركة، نسأل الله أن يجزيه عنا وعن المسلمين خيرًا، وأن يثيبنا جميعا، ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح؛ إنه سميع مجيب.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
مقاصد ثلاثة الأصول	٤
أولا: المقدمات	٤
ثانيا: الأصول الثلاثة	٥
ثالثا: الخاتمة	٧
مقدمة الشرح	٩
المسألة الأولى: ترجمة موجزة للشيخ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ	٩
المسألة الثانية: اسم الكتاب	١١
المسألة الثالثة: مضمون الرسالة	١٣
المسألة الرابعة: أهمية هذه الرسالة، وعناية العلماء بها	١٣
المسألة الخامسة: خطة الشرح	١٥
الفصل الأول: المقدمات	١٧
المبحث الأول: المسائل الأربع	١٧
المسألة الأولى: العلم	٢٠
المسألة الثانية: العمل به	٢٣

المسألة الثالثة: الدعوة إليه	٢٥
المسألة الرابعة: الصبر على الأذى فيه	٢٧
المبحث الثاني: المسائل الثلاث	٣٤
المسألة الأولى: أن الله خلقنا	٣٤
المسألة الثانية: أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته	٤٢
المسألة الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحد الله، لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله	٤٥
المبحث الثالث: الحنيفية، وبيان بعض الأوامر والنواهي	٥٠
الفصل الثاني: الأصول الثلاثة	٥٩
المبحث الأول: الأصل الأول (معرفة العبد ربه)	٥٩
المسألة الأولى: المراد بهذا الأصل	٦٠
المسألة الثانية: لازم المعرفة	٦٢
المسألة الثالثة: معنى الرب	٦٢
المسألة الرابعة: المراد بالعالمين	٦٤
المسألة الخامسة: بم تحصل هذه المعرفة؟	٦٧
العبادة الأولى: الدعاء	٧٣
المسألة الأولى: معنى الدعاء	٧٤
المسألة الثانية: أقسام الدعاء	٧٥
المسألة الثالثة: العلاقة بين دعاء المسألة ودعاء العبادة؟	٧٥

المسألة الرابعة: الأدلة على هذه العبادة	٧٧
المسألة الخامسة: حكم دعاء غير الله	٧٧
المسألة السادسة: العلاقة بين الدعاء والعبادة	٧٨
العبادة الثانية: الخوف	٧٩
المسألة الأولى: معنى الخوف	٧٩
المسألة الثانية: دليل كون الخوف عبادة	٧٩
المسألة الثالثة: أقسام الخوف	٨٠
العبادة الثالثة: الرجاء	٨١
المسألة الأولى: معنى الرجاء	٨١
المسألة الثانية: دليل الرجاء	٨١
المسألة الثالثة: أنواع الرجاء	٨٢
العبادة الرابعة: التوكل	٨٣
المسألة الأولى: معنى التوكل	٨٣
المسألة الثانية: دليل التوكل	٨٤
المسألة الثالثة: أنواع التوكل	٨٤
المسألة الرابعة: الفرق بين التوكل والتوكيل	٨٦
العبادة الخامسة والسادسة والسابعة: الرغبة والرهبة والخشوع	٨٦
المسألة الأولى: في بيان معناها	٨٦

المسألة الثانية: دليل الرغبة والرهبة والخشوع	٨٧
العبادة الثامنة: الخشية	٨٩
المسألة الأولى: معنى الخشية	٨٩
المسألة الثانية: دليل الخشية	٨٩
المسألة الثالثة: مراتب الخشية	٩٠
العبادة التاسعة: الإنابة	٩٠
المسألة الأولى: معنى الإنابة	٩٠
المسألة الثانية: دليل الإنابة	٩١
العبادة العاشرة: الاستعانة	٩٢
المسألة الأولى: معنى الاستعانة	٩٢
المسألة الثانية: دليل الاستعانة	٩٢
المسألة الثالثة: أحوال الاستعانة	٩٢
العبادة الحادية عشر: الاستعاذة	٩٥
المسألة الأولى: معنى الاستعاذة	٩٥
المسألة الثانية: دليل الاستعاذة	٩٦
المسألة الثالثة: أنواع الاستعاذة	٩٦
العبادة الثانية عشر: الاستغاثة	٩٨
المسألة الأولى: معنى الاستغاثة	٩٨

المسألة الثانية: دليل الاستغاثة	٩٩
المسألة الثالثة: أنواع الاستغاثة	٩٩
العبادة الثالثة عشر: الذبح	١٠٠
المسألة الأولى: معنى الذبح	١٠٠
المسألة الثانية: دليل الذبح	١٠٠
المسألة الثالثة: أقسام الذبح	١٠١
العبادة الرابعة عشر: النذر	١٠٣
المسألة الأولى: معنى النذر	١٠٣
المسألة الثانية: دليل النذر	١٠٣
المبحث الثاني: الأصل الثاني (معرفة دين الإسلام)	١٠٥
مراتب الدين	١٠٥
أركان الإسلام	١٠٨
أركان الإيمان	١١٨
مراتب الإحسان	١٢٤
حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ	١٢٦
المبحث الثالث: الأصل الثالث (معرفة النبي ﷺ)	١٢٨
المسألة الأولى: نسب النبي ﷺ	١٢٨
المسألة الثانية: عمره ﷺ	١٢٩

المسألة الثالثة: بم كانت نبوته ورسالته؟	١٣٠
المسألة الرابعة: بلده ومهاجَره	١٣١
المسألة الخامسة: بم بعث الرسول ﷺ؟ وما الدليل على ذلك؟	١٣٢
المسألة السادسة: المعراج	١٣٣
المسألة السابعة: الهجرة	١٣٥
الفصل الثالث: الخاتمة	١٤٤
المبحث الأول: البعث بعد الموت	١٤٤
المبحث الثاني: إرسال الرسل	١٥٠
المبحث الثالث: الطاغوت، وبيان حكمه	١٥٤
المسألة الأولى: موارد الكلمة في القرآن الكريم	١٥٤
المسألة الثانية: معنى هذه الكلمة	١٥٥
المسألة الثالثة: أشهر الطواغيت	١٥٦
فهرس الموضوعات	١٦٢

تم بحمد الله تعالى

●●●